ثورة ناصر الدولة بن حمدان علي الخلافة الفاطمية في مصر (٤٦٠-٤٦٥هـ/١٠٦٧-١٠٧٢م)

د. صلاح الدين علي عاشور
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

مقدمـــة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ أما بعد ...

فقد كان الحكم الفاطمي في معظم مراحله لعنة حلّت بالديار المصرية قاسي منها كل طوائف الشعب فلم يقف الأمر عند حدود الخلافات المذهبية الدامية بين السنة والشيعة التي أشعلها الفاطميون بمحاولاتهم صبغ الدولة بالصبغة الشيعية(١).

وقد هزت هذه الخلافات كيان الدولة الفاطمية هزا شديدا، وساعده وفت في عضدها انقسام طوائف الجند من مغاربة وأتراك وسودانيين إلي فئات بغية النفوذ والسلطان، ومحاولة كل صاحب قدرة علي إحراز المال بكل السبل، وصراع تلك الفئات في الانتصار لواحد علي الآخر، وخيانة هذا لنصرة ذاك.

كما تعرضت الدولة لهزات عنيفة نتيجة حركات المتغلبين في الأقاليم، واختلال الأحوال العامة، الأمر الذي انعكس علي الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية،

---

(١) بعد أن استولي الفاطميون علي مصر وبلاد الشام وجهوا جهودهم أيضا إلي العراق الأمر الذي أقلق بال الخلافة العباسية بسبب وقوعها تحت حكم البويهيين الشيعة، ونمو الفكر الشيعي ممثلا في المد الفاطمي الإسماعيلي. وهي الفرقة التي أدعت أن الإمام جعفر الصادق قد نص علي إمامة ابنه إسماعيل، وهي مزيج من فرق مغالية من الشيعة. وقد غلب عليهم لفظ الإسماعيلية، كما عرفوا أيضا بالملاحدة لما في مقالتهم من الإلحاد، ولهم ألقاب كثيرة سوي هذه علي لسان الناس: بالعراق يسمون الباطنية والقرامطة، وبخراسان يسمون الملاحدة، والنزارية. المقريزي:المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ٢ ص٣٥٧، دار صادر، بيروت(د.ت). البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢، تحقيق: عثمان الخشب مكتبة ابن سينا القاهرة ١٩٨٨م.

وبخاصة في القاهرة التي كانت تقع مباشرة تحت نفوذ هؤلاء الأتراك، الذين تنازعوا علي السلطة، وتهافتوا علي الأموال، وتقاعسوا عن الحرب، الأمر الذي أدي إلي نشوب أزمة مالية خانقة، فكان الجو مهيئا لكل مغامر يستطيع استغلال هذه الأحوال(١).

وضاعف من اشتداد الأزمة ضعف الوزراء الذين لم يعد لهم من الأمر شيء فكثر عزلهم، بل كان من الوزراء من يعزل ويسجن ثم يعين مرة أخري حتي فقد المنصب هيبته، وأصبح هم كل وزير أن يحتفظ بمركزه ضد دسائس منافسيه، ومحاولة الإثراء بأي ثمن، وانتهي الأمر بدخول البلاد في فترة من البؤس والشقاء والمجاعة استمرت سبع سنوات (٤٥٩-٤٦٤هـ/١٠٦٦-١٠٧١م) وهي التي عرفت في التاريخ بـ "الشدة العظمي" أو الشدة المستنصرية(٢).

ويلاحظ أن الخلافة الفاطمية قد وقفت إزاء هذه التطورات مكتوفة اليدين لا تقوي علي فعل شيء بعد أن وصلت إلي مرحلة حرجة من الإنهاك والإعياء وبدت هشاشة الدولة، كما أن الخلفاء العباسيين كانت لهم أطماع يتمنون لو تمكنوا من تحقيقها في مصر، بالسيطرة عليها مرة أخري من الفاطميين(٣).

وقد ذكرت روايات المؤرخين أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي الذي جاء إلي الخلافة تحت وصاية، أمه كان ذا شخصية ضعيفة مترددة، دائمة البحث عن حلول للأزمات بعد وقوعها، أو بمعني آخر كان يعيش ردة الفعل بصورة دائمة وليس العكس(٤).

---

(١)المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج٢ ص٣٠٢ ، تحقيق: د. محمد حلمي محمد أحمد، طبع المجلس الأعلي للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٩م.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٨ ص٢٥٧، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هـ.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ج٤ص١٧١، دار الجيل، ط ٨، بيروت ١٩٩٦م.

(٣)ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٢٣. تصحيح :هنري ماسيه، طبع المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩١٩م. محمد سالم العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٦٧هـ/١٠٥٥-١١٧١م) ص١٣٨، ط١، الرياض١٩٨٢م.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، ج ٤، ص٦٩، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة ١٩٣٥م.

وأكثر ما أدان به المؤرخون عصر المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥ - ١٠٩٤م) هو ارتهانه لأمه التي كانت تدفعها رغبة جامحة للسيطرة علي الحكم بتدخلها في شؤون الخلافة، الأمر الذي أدي إلي تعرض الدولة لهزات عنيفة كادت تؤدي إلي تفككها، لولا احتفاظها بنوع من التماسك نتيجة افتقار الشخصيات الثائرة إلي المصداقية بين مؤيديها(١).

والمؤسف أن العبيد السودانيين الذين شكلوا جناحا مهماً من عناصر الجيش الفاطمي بتشجيع من أم المستنصر ذاتها، قوي أمرهم وانتشروا يثيرون الذعر والفساد في البلاد، وأصبحت الأموال نهبا للطامعين، وبات واضحا أن الخلافة تسير في ذلك المنحني المتردي حتي بدت عاجزة عن ضبط الأمور، واعتقد الجميع أن هيبتها قد تحطمت تماما(٢).

ومن البديهي أن تنعكس تلك الحالة علي أطراف الصراع، وأن تصبح القوة هي مصدر القرار السياسي، وأن الصدام قادم لا محالة بين أولئك الأمراء الطامعين في السيطرة علي الدولة دون الخليفة، حتي إن المقريزي[٣] يعد لنا أكثر من عشرة ثائرين يذكر بعض أسمائهم يأتي علي رأسهم "ناصر الدولة بن حمدان" و"بلدكوش"، و"سبكتكين"، و"سعد الدولة" المعروف بسلام عليك، و"شاور بن حسين".

ولعل أكثر هؤلاء خطورة كان "ابن حمدان" (زعيم الأتراك) وأحد العناصر الناقمة ذات الحضور القوي في عاصمة الخلافة يعبر بكثير من الدقة عن هذه التطورات، التي مثلت انعطافا خطيرا في تاريخ الفاطميين، لاسيما بعد أن قام بعزل الخليفة المستنصر من منصبه، وأعلن الخطبة علي منابر مصر والقاهرة للخليفة "القائم بأمر الله العباسي (٤٢٢- ٤٦٧هـ/١٠١٣- ١٠٧٤م)(٤) ولم يكن هذا حدثا عاديا في تاريخ العالم الإسلامي(٥).

---

(١)ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ ص٢٣٤ دار الكتب العلمية ط٣، بيروت ١٩٨٨م.
(٢)ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٢٣.
(٣)اتعاظ الحنفا :ج٢ ص٢٨١.
(٤) القائم بأمر الله: أبو جعفر عبد الله بن القادر العباسي ولد عام (٣٩١هـ/ ١٠٠٠م) وأمه أم ولد اسمها بدر الدجي وقيل قطر الندي ولي الخلافة بعد موت أبيه القادر عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) وكان ولي عهده في حياته. ابن دحية: النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس. ص١٣٦. تحقيق عباس العزاوي، بغداد. ١٩٤٦م. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٦٦، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٨٩م.
(٥) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٢٣.

وقد استهوت دعوة "ناصر الدولة" كثيراً من الأتراك فتسارعوا إليه حتي كثر أتباعه وعظم شأنه وقويت شوكته، ولكن الرجل تناقض مع مبادئه تناقضا عجيبا، الأمر الذي يجعلنا نحكم علي حركته بأنها مغامرة انتهازية، ولا نسلكها في عداد الحركات الإصلاحية لأنها لا تختلف كثيرا في الأسلوب والأهداف عن التي اتبعها البساسيري[١]من قبل مع الخلافة العباسية قبل عشر سنوات[٢].

والواقع أن "ابن حمدان" لم يكن صاحب مبدأ إنما كان صاحب طموح يستخدم له من الشعارات ما يساعد علي تحقيقه، ويعمل في سبيل ذلك من الأعمال ما يحقق غرضه حتي لو أوقعه ذلك في التناقض أو ألصق به صفة الخسة والنذالة .ولم تكن ثورة الأتراك بزعامة ابن حمدان وحدها هي التي أقضت مضاجع الخلفاء الفاطميين في مصر، بل اشتعلت بجانبها ثورات أخري، مثل:الصليحيون في اليمن، وبنو الجراح في فلسطين، والحسنيون والحسينيون في مكة والمدينة، بل كان بعضهم يزيف لنفسه شعارا حتي يجمع العامة في صفوفه وتحت لوائه(٣).

وفي المقابل لم يحرك الفاطميون ساكنا في بداية الأمر بسبب انشغالهم بفض الاشتباك بين القوي السياسية المتصارعة آنذاك، وخروج أغلب الأقاليم عن السيطرة، بينما ظهر"ابن حمدان" بمظهر الفارس الذي بهر المعسكر السني بشجاعته وإقدامه، حيث راودته نفسه بأن يكون أميرا مستقلا، فأخذ يعد نفسه لهذا الهدف، وبخاصة أن لديه الرجال والأنصار، فأخذ في تتبع وإخماد حركات العبيد في القاهرة حتي اضطرهم إلي الهروب علي الصعيد(٤).

---

(١) البساسيري: أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي مقدم الأتراك ببغداد كان مملوكا لبهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه . خرج علي الخليفة القائم بأمر الله العباسي سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) وكان قد قدمه علي جميع الأتراك ، وقلده الأمور بأسرها ، وخطب له علي منابر العراق وخوزستان وعظم أمره وهابته الملوك ، وبعد أن خرج علي الخليفة القائم أخرجه من بغداد ، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر لمدة عام كامل علي منابر بغداد، قبل أن يقضي عليه السلطان طغرلبك السلجوقي سنة (٤٥١هـ / ١٠٥٩م) ويأمر بقتله. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص١٩٢، تحقيق د/ إحسان عباس ، دار صادر بيروت، ١٩٦٨م. الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٣ ص ٢٢٥ تحقيق فؤاد السيد دائرة المطبوعات والنشر الكويت ١٩٦١م.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٨ ص١٦٤.

(٣) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص١٨١، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٧م.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين ج٢ ص٢٨٢.

ويبدو أن المستنصر كان يدرك أنه سيحتاج يوما ما إلي هؤلاء العبيد لأنه ضاق ذرعا بالأتراك الذين كانوا حريصين علي إنعاش مصالحهم لمخالفتهم أوامره، فضلا عن عبثهم بأمن البلاد، وقيامهم بعمليات واسعة من السلب والنهب، وأصبح واضحا أن الصدام بين الطرفين هي الأزمة الموقوتة التي ستثار بعد ذلك، كما أنه لم يكن باستطاعته تجاهل ما يفعله "ابن حمدان" فقرر التصدي له، وما لبث ميزان القوي أن تغير لصالح المستنصر باطراد، لاسيما في ميدان العمليات العسكرية، بينما تأرجحت كفة "ابن حمدان" بين الزيادة والنقصان(١).

والواقع أن نصيب الشعب المصري من أخلاق ذلك العصر كان قليلا، فلم يشتهروا بالدناءة، والدس، والنميمة، والخيانة، كما كان الحال في عصور الظلام والطغيان، وجل ما كان يدور علي أرض مصر من دسائس وخيانات وحركات عنيفة دامية، كان معظمها من صنع الجند المجلوب من الأتراك والمغاربة والعبيد من السودانيين في سبيل نزاعهم علي السلطة، بينما لجأ المصريون إلي حل مشكلاتهم عن طريق سلمي ليجنبوا بلدهم الدمار والكوارث في الداخل، بينما يواجهون العدو بكامل ثقلهم علي الحدود ليجنبوا بلدهم عبث العابثين(٢).

وهكذا دعا إلي هذه الثورة رجل مغامر رأي اختلال أحوال الخلافة الفاطمية، فأراد أن يحقق لنفسه شيئا في هذا الجو المضطرب مستغلا ظهور الحركات المذهبية التي ظهرت في بعض أجزاء العالم الإسلامي، والتي أخذت تمتد حتي وصلت إلي مركز الخلافة في مصر، مستغلا الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي أخذت تسوء بسبب تسلط الأتراك علي الخلافة، وانصرافهم إلي جمع المال والحصول علي الإقطاعيات الكبيرة، مع عدم التفاتهم لتنمية الثروة العامة للدولة بإصلاح المرافق وتحسين وسائل الإنتاج، بل لجأوا إلي المصادرات، وهدم بنيان الدولة(٣).

وحري بنا أن نتحدث عن وجود الأتراك في العالم الإسلامي، والعوامل والمؤثرات التي مكنتهم من الوصول إلي السلطة والنفوذ، الأمر الذي جعلهم خطرا يهدد كيان المنطقة العربية.

---

(١)ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص٤٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٠م.

(٢) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي ص٥٥، ٥٤ . منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩٠م.

(٣) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص١٨٣.

الأتراك في الجيش الفاطمي:

شهد القرن الرابع الهجري(١٠م) سيطرة الفكر الشيعي المتنازع علي السلطة فوق أرض تقوم عليها سلطة الخلافة العباسية المتهاوية [١].

هذا في الوقت الذي حرص فيه الفاطميون منذ أن أقاموا دولتهم في بلاد المغرب أواخر القرن الثالث الهجري (٩هـ)، علي تقويض دعائم الخلافة العباسية السنية، ووراثتهم في الشرق وانتزاع زعامة العالم الإسلامي منها وتوسيع رقعة أراضيهم وتكلل مجهودهم بالاستيلاء علي مصر سنة (٣٥٨هـ/٩٦٨م)(٢) وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي"المعز لدين الله"(٣)علي منابرها، وأصبحت القاهرة منذ ذلك الحين حاضرة الخلافة الفاطمية، لاسيما بعد انتقال المعز إليها سنة (٣٦٢هـ/٩٧٢م)(٤).

وكان طبيعيا بعد أن تم للفاطميين فتح مصر أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام، رغبة منهم في تأمين حدود مصر من ناحية الشمال، لذلك أرسل "جوهر الصقلي"(٥) حملة عسكرية إلي بلاد الشام سنة (٣٥٩هـ/٩٦٩م) أسند قيادتها إلي

---

(١) خضعت معظم أراضي الدولة العباسية إلي حكم الفاطميين الإسماعيلية سواء في مصر أو الشام، كما خضع العراق لحكم البويهيين الشيعة، وخضعت أجزاء كبيرة من شبه جزيرة العرب إلي حكم القرامطة الباطنية، وخضعت الموصل وحلب للحمدانيين. محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص١١٧- ١٢١، دار الفكر العربي، ط٤ القاهرة ١٩٧٣م.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص ٢٢٤- ٢٢٨. ابن خلدون: العبر ج ٤ ص٤٦. ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص٥٢.

(٣) المعز لدين الله: معد المعز لدين الله، المعز أبو تميم معدّ بن منصور، رابع الخلفاء الفاطميين في إفريقية(تونس حالياً) وأول الخلفاء الفاطميين في مصر والإمام الرابع عشر من أئمة الإسماعيلية حكم من ٩٥٣ حتي ٩٧٥. وقد أرسل أكفأ قواده وهو جوهر الصقلي للاستيلاء علي مصر من العباسيين فدخلها وأسس مدينة القاهرة بالقرب من الفسطاط . ابن الجوزي: المنتظم ج٧ ص٨٢. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة ج ٤ ص٦٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ ص٢٣٤ .

(٥) جوهر الصقلي: هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله، ويعرف أيضاً باسم جوهر الرومي وكان أهم وأشهر قائد في التاريخ الفاطمي، فهو مؤسس مدينة القاهرة، وباني الجامع الأزهر، وهو من أقام سلطان الفاطميين في الشرق وهو فاتح بلاد المغرب ومصر وفلسطين والشام والحجاز . لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان ج ١ ص٣٧٥ - ٣٨٠. أبو المحاسن: النجوم ج ٤ ص٣٨.

"جعفر بن فلاح الكتامي"(١) الذي استطاع أن يبسط نفوذه علي معظم بلاد الشام(٢).

ومع ذلك لم تؤد حملة جعفر إلي بسط نفوذ الفاطميين علي بلاد الشام بأكملها، فقد ظل "الحمدانيون"(٣) يحكمون "حلب"(٤) فترة أخري من الزمن حتي استطاع "المرداسيون"(٥)أن يقيموا دولتهم علي أنقاضها سنة (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)،(٦)

---

(١) جعفر بن فلاح الكتامي: أبو علي جعفر بن فلاح الكتامي، كان أحد قواد المعز صاحب أفريقية، وكان جعفر رئيسا جليل القدر ممدوحا. لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان ج ١ ص٣٦١، ٣٦٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٣٦١.

(٣) الحمدانيون: نشأت هذه الإمارة في حلب والموصل، وأعظم أمرائها "علي بن أبي الهيجاء" الحمداني الملقب بسيف الدولة.وكانت دولة صغيرة الرقعة قليلة الثروة بالنسبة لغيرها. وقد حاول "الحمدانيون" توسيع رقعة بلادهم في منطقة الجزيرة الفراتية ، مما حمل الخليفة المعتضد بالله العباسي أن يستعين بهم في حكم هذه المنطقة. ولما ولي المتقي الخلافة (٣٢٩-٣٣٣هـ/ ٩٤٠-٩٤٤م) سطع نجم بني حمدان في أفق الدولة العباسية حتي تولوا منصب "إمرة الأمراء" في بغداد سنة (٣٣٠هـ/ ٩٤١م) ولكنهم لم يستطيعوا أن يقروا النظام بها. ولما استولي الفاطميون علي مصر ثم الشام عملوا علي القضاء علي دولتهم في حلب، وأحلوا مكانهم "المرداسيين" زعماء قبيلة "كلب" . كذلك كان البويهيون بالعراق قد قضوا علي دولة بني حمدان في الموصل، فانتقل بقايا الحمدانيين إلي القاهرة الفاطمية وعاشوا هناك كلاجئين . بدر عبد الرحمن بدوي: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجري حتي ظهور السلاجقة ص٥٤، ٥٥ مكتبة الأنجلو المصرية ط١ القاهرة ١٩٨٩م.

(٤) حلب: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات وهي قصبة جند قنسرين من أعمال الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص٢٨٢، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م.

(٥) المرداسيون: ينتسب المرادسيون إلي قبيلة كلاب العربية، وقد تحولوا من منازلهم في منطقة الفرات -شمالي سوريا(ناحية حلب) في مطلع القرن الحادي عشر للميلاد-. حيث استطاع قائدهم صالح بن مرداس أن يستولي علي حلب عام ١٠٢٤ م، وقضي علي نفوذ الحمدانيين. ثم كان عليه وعلي أتباعه أن يحفظوا رقعة دولتهم ضد هجمات الفاطميين والبيزنطيين معا. ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب ج١ ص٢٧٧، حققه وقدم له د/ سهيل زكار، دار الكتاب العربي ط ١، دمشق ١٩٩٧م.

(٦) عندما دخل السلاجقة بغداد سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) كانت حلب إحدي الولايات التي يحكمها المرداسيون باسم الفاطميين، وكان واليها في تلك الفترة "ثمال بن صالح بن مرداس" الذي مد يد العون للبساسيري عندما فر من بغداد متجها إلي "الرحبة" حيث استقبله، وأكرمه، وقدّم له الأموال، بل إنه كاتب الفاطميين وتنازل لهم عن حلب. وظل ولاء المرداسيون للفاطميين لا ينقطع حتي في عهد "محمود بن نصر بن صالح" حتي داهمهم السلاجقة بقيادة ألب أرسلان.

بينما أسدل الستار علي الحمدانيين إلي الأبد(١). وكان الفاطميون يهدفون منذ انتقالهم إلي مصر القضاء علي العباسيين الذين اعتبروهم مغتصبين لحقهم في الخلافة، لكنهم حين تم لهم إخضاع الشام تراجعت رغبتهم في ذلك لانشغالهم بصد الهجمات البيزنطية في بلاد الشام، لاسيما وأن العباسيين كانوا قد وصلوا إلي مرحلة شديدة من الضعف، فتحمل الفاطميون عبء الوقوف في وجه الروم، بينما سيطرت علي الخلافة العباسية قوة شيعية ارتبط معها الفاطميون بعلاقات قوية، وهم البويهيين(٢) الشيعة حتي أصبح العراق نفسه موطنا مهما للشيعة(٣).

وكان الفاطميون قد ساروا علي سياسة العباسيين في الاستعانة بالجنود المرتزقة في جيوشهم، حتي صار جيشهم يتكون من عناصر وجنسيات متعددة متباينة في طبائعها وأخلاقها(٤)، منها "المغاربة" و"الديالمة" و"الأتراك" والسودانيين(٥)، الذين زادوا في مصر زمن الفاطميين زيادة كبيرة، حتي يقال إن أم الخليفة "المستنصر" استكثرت منهم حتي بلغوا في مصر خمسين ألفا(١).

محمد العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي (٤٤٧ - ٥٦٧ هـ / ١٠٥٥ - ١١٧١م) ص١٣٤، ١٣٥، ط ١ الرياض ١٩٨٢م.

(١) العوفي: العلاقات السياسية ص١٣٦.

(٢) البويهيون: أسرة فارسية تنسب إلي "بويه" وهو رجل فارسي ديلمي، يقال إنه كان صيادا في بحر قزوين، كان له أبناء ثلاثة هم علي والحسن وأحمد استطاعوا أن يقيموا دولة لهم في فارس، والعراق، وأن يؤسسوا إمارة وراثية دامت مائة وثلاث عشر سنة (٣٣٤- ٤٤٧ هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م) وسقطت هذه الدولة بدخول السلاجقة مدينة بغداد .المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ق١ص٢٣، دار الكتب المصرية ١٩٣٤م .

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص٦٧.

(٤) حرصت الدولة الفاطمية منذ نشأتها أن تستمد قوتها العسكرية من بلاد المغرب علي العناصر البربرية، وهو ما عرف بالمغاربة الذين عرفت منهم طوائف متعددة أشهرها "كتامة" و"زويلة" ونحوهما من طوائف البربر، ثم ظهر ميل الفاطميين إلي استخدام عناصر من الديلم والترك، وكان الغرض من ذلك أن يوجدوا التنافس بينها في خدمتها . عبد المنعم ماجد: الإمام المستنصر بالله الفاطمي ، ص١٦٠، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦١م.

(٥) كان الفاطميون يستخدمون السود في جيوشهم مثلما فعل "الطولونيون" من قبل، وكان قد شجع علي انتشار هذه الظاهرة تلك المعاهدة التي أبرمت زمن الخليفة الراشد "عثمان بن عفان" (رضي الله عنه) بين العرب والنوبة التي كانت تنص في إحدي بنودها . بأن يتعهد ملك النوبة بإرسال عدد معين من السود بدل الجزية السنوية التي كانت تفرض عليهم، مما أدي إلي كثرة هؤلاء في مصر حتي بلغ عددهم أكثر من خمسين ألف في العصر الفاطمي.

فقد كان تجار الرقيق يسرقون أبناء "البجة" وهي عناصر سوداء تسكن بين النيل والحبشة لبيعها للفاطميين(٢).

وكان العنصر البارز في هذه الجماعات هو العنصر التركي ثم السوداني. وكان لكل جماعة من هؤلاء تراثها الفكري والاجتماعي والديني الذي انبت بلا شك أشياء كثيرة في نظم المجتمع المصري وعاداته وتقاليده، لاسيما الفكري والديني .

وثمة تحول خطير حدث في تاريخ الدولة العباسية فبعد أن كان جل اعتمادها في عصرها الأول علي العناصر الفارسية . وهم بالقطع أصحاب مدينة وحضارة بثّوهما بدورهم في الحياة العربية . نراهم في عصرهم الثاني يعتمدون علي الترك، الذين لم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة، بل كانوا بدواً لا يعرفون صناعة ولا زراعة ولا تجارة ولا فنون ولا آداب ولا قواعد ملك وسياسة، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس، وقد صورهم الجاحظ[٣] تصويراً دقيقاً في رسالته التي تحدث فيها عن مناقبهم قائلا:" الترك أصحاب عَمدَ (خيام) وسكان فياف وأرياب مواشٍ، وهم أعراب العجم ...فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة، ولا غَرسٌ ولا بُنيانٌ ولا شَقُّ أنهار ولا جباية غَلاَّت، لم يكن همهم غير الغزو والغارة والصَّيْد وركوب الخَيْل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذَّتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم، فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات... وكآ ل ساسانَ في الملك والرياسة ".

وكان الخليفة المعتصم قد استاء من الفرس والعرب، ورأي ضرورة استبدالهم بعنصر آخر، ليس له مطامح الفرس القومية، ولا الأهواء السياسية التي للعرب يضاف إلي ذلك أن المعتصم كانت أمه تركية، هذا فضلاً عن أن الأتراك يتميزون بالروح العسكرية، وجمال الصورة، وحسن البنيان مما شجع الخلفاء وكبار رجال

المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج١ ص٢٠٠، ٢٠١، دار صادر، بيروت (د.ت) .

(١) كانت أم المستنصر "أمة سوداء" بيعت للخليفة "الظاهر" الذي استولدها المستنصر، فكثرت أعدادهم في مصر نتيجة لذلك . المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١ ص٣٣٥ .

(٢) ناصر خسرو: سفرنامة ص٦٧. ترجمة د. يحيي الخشاب الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ٢، القاهرة ١٩٩٣م.

(٣) رسائل الجاحظ: ص٤٥، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٥م.

الدولة علي الإكثار منهم لاستعمالهم خدما، أو حرسا خاصا، أو نواة لفرق قوية في الجيش[١].

واستبد الأتراك بالنفوذ والسلطان في عهد المستنصر وأصبحوا مصدر قلق واضطراب في الدولة الفاطمية وسيطروا علي الولايات الإسلامية وعلي الجيش وعلي إدارة الدولة، بل امتدت سيطرتهم إلي قصر الخلافة، وتدخلوا في إدارة سياسة الدولة، وحركوا الجهاز السياسي، وشيئاً فشيئاً ضعف نفوذ الخليفة، ولم يعد قادراً علي الانفراد بإدارة شئون البلاد كما كان الحال في العصر الأول، بل أصبح الخليفة خاضعاً للأتراك[٢].

يضاف إلي ذلك أن الأتراك علي عكس الفاطميين الشيعة، كانوا سنيين، وذلك منذ أن اعتنقت القومية التركية الإسلام وفق مبادئ المذهب السني، وذلك بسبب نشأتهم الأولي ومجاورتهم للأقاليم السنية في منطقة التركستان[٣].

ولذلك فإن الخليفة الفاطمي"المعز لدين الله" كان قد حذر "جوهر الصقلي" من الاستعانة بالأتراك في الجيش، أو أن يفسح لهم المجال في الحكم ، ووصفهم بأنهم غدارون لا ثقة فيهم، حيث يقول: "إنهم يتظاهرون بثلاثة أشياء، وليس لهم فيها نصيب، يتظاهرون بالدين، وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا لآخرة"(٤).

والواقع أن الأتراك عرفوا طوال تاريخهم بالغلظة والشراسة والغطرسة في كثير من الأحداث، لأنهم لم يقفوا عند حد السلب والنهب بل تعدي ذلك إلي القتل والتخريب، وأكبر دليل علي ذلك أننا نراهم أكثر الذين خاضوا الثورات ضد الخلفاء، وكانوا أشد المحرضين علي خلعهم، بل وقتلهم والتنكيل بهم في كثير من الأحيان، حتي أطلق عليهم قتلة الخلفاء(٥).

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ج٨ ص٢٠٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم ج٥ ص٢٠.

(٣)عبد الحميد أبو الفتوح بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتي سقوط بغداد ص٤٦. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢ ، المنصورة ١٩٨٨م.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص٢٢٧. ابن خلدون: العبر ج٤ ص ٤٦.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٥٦ .

الانتشار الشيعي في العصر الفاطمي:

اضطر الأسماعيليون منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين إلي التركيز علي العمل الفكري بدل المغامرة بتنظيمات سياسية ستتعرض للملاحقة والأذى لامحاله، وكان أصحاب هذا الترويج للمذهب ثلاثة من الفلاسفة الإسماعيلين عاشوا خلال تلك لفترة هم: أبو عبد الله بن أحمد النسفي المتوفي سنة (٣٢١هـ/٩٣٣م) والذي كان تلميذا لأحد كبار الدعاة الإسماعيليين الأوائل في خراسان هو الأمير" الحسين بن علي المروروزي" الذي كان له نفوذ كبير في المنطقة فاستمال كثير من الشخصيات السياسية والعلمية إلي المذهب الأسماعيلي. والثاني هو "يعقوب بن أحمد السجستاني" المتوفي سنة (٣٣١هـ/٩٤٢م) والثالث هو "أبو حاتم الرازي" الفليسوف الإسماعيلي المتوفي سنة (٣٢٢هـ/٩٣٣م) الذي كان من الأوائل الذين وضحوا الأسس النظرية للعقيدة الإسماعيلية، وكان لهؤلاء الثلاثة دور كبير في إذاعة المذهب الإسماعيلي في العالم الإسلامي(١).

ويؤكد الفيلسوف والداعية الشيعي "ناصر خسرو"(٢)علي أهمية نشر الدعوة في بلاد غير شيعية بقوله: "إن الخليفة عليه أن يقاتل الكفرة بحد السيف وأن يقاتل المنشقين من المسلمين بالدعوة".

ولا ريب أن الخلافة الفاطمية منذ نشأتها لم تكن دولة أساسها الدين فحسب، ولكنها أيضا متمذهبة لها عقائدها الخاصة، إذ كان من أهداف ظهور هذه الخلافة نشر عقائدها الشيعية (٣). ويذكر البعض(٤) أن الخليفة الحاكم بأمر الله هو الذي اتخذ خطوات جريئة نحو نشر الدعوة الشيعية حين جعل للدعوة رئيسا تلقب بـ"داعي الدعاة"(٥).

---

(١) محمد عثمان الخشب : حركة الحشاشين ص٤٩، ٥٠ .

(٢) سفرنامة : ص٧٦.

(٣) عبد المنعم ماجد: الإمام المستنصر بالله الفاطمي، ص٥١ .مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦١م.

(٤) السابق: ص٥٤.

(٥) محمد عثمان الخشب : حركة الحشاشين ص٥٣.

واللافت أن عهد الخليفة المستنصر بالله تميز بفترة نجاح مهمة لعقائد الفاطميين، حتي يقال إن جهاز الدولة كله تحول إلي خدمة المذهب الشيعي، لاسيما بعد أن استعان بالفلسفة لصالح الدعوة(١).

ويكفي أن نطالع التصانيف الإسماعيلية زمن المستنصر حتي يتبين لنا الطابع الشيعي فمثلا نجد كتاب "المجالس المؤيدية" لصاحبه "هبة الله الشيرازي" وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات بلغ عددها ثمانمائة محاضرة أو مجلس تولي صاحبها رئاسة الدعوة في مصر، وهو الذي قال عنه الأديب البارع "أبو العلاء المعري" المتوفي سنة (٤٤٩هـ/١٠٥٧م): "...سيدنا الرئيس الجل المؤيد في الدين، لازالت حجته باهرة ودولته عالية ... ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفحمه، أو أفلاطون لنبذ حجته خلفه"(٢).

ويبيّن البعض النجاح الذي حققه المستنصر بقولهم إن المصريين أقبلوا علي الدعوة الشيعية رجالا ونساءاً حتي أصبح المذهب السني غريبا(٣) حتي قيل إن النجاح الذي حققه لم يتحقق لأي خليفة سابق فالنتائج كانت هائلة، هدفها الأول العمل علي الطعن علي أعدائها العباسيين في العراق، ثم استمالة رعاياها السنيين بالانضمام إليهم تمهيدا لسيادة الخليفة الفاطمي علي جميع المسلمين(٤).

والمؤكد أن خلفاء مصر الفاطميين أكثر الذين عملوا علي خلع الخليفة العباسي السني في بغداد، فكانوا يبعثون بمبعوثيهم إلي أمراء الدويلات المنشقة ليدخلوا في المذهب الشيعي ونجحوا إلي حد ما مع بعض هؤلاء الأمراء(٥)، كما

---

(١) نشطت الفلسفة في مصر وبلغت أوجها في عهد الحاكم، وبلغ التأليف فيها شأنا عظيما لاسيما علي يد "حميد الدين الكرماني" المتوفي سنة (٤١١هـ/١٠٢٠م) الذي وفق بين العقائد الشيعية، وأقوال فلاسفة اليونان، أمثال "أفلاطون" و"أرسطو"، كما وفق بين أرائهم وآراء فلاسفة عصره ؛ بحيث اعتبر شيخ فلاسفة الإسماعيلية في عصره. وفي عهد المستنصر عاد مفكرو الشيعة إلي الظهور مرة أخري حتي أصبحت الفلسفة من أركان الفكر الإسماعيلي في عصره . ماجد: المستنصر الفاطمي ص٦٠.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص٢٠٩.

(٣) ماجد: المستنصر الفاطمي، ص٦٢ .

(٤) السابق: ص٦٧.

(٥) كان لنشاط داعي الدعاة الفاطمي "المؤيد لدين الله هبة الله الشيرازي" ذي الشخصية المتعددة الجوانب، أكبر الأثر في انتعاش الدعوة الإسماعيلية في إيران والعراق، فقد اتسعت علي يديه دائرة المستجيبين للمذهب الإسماعيلي، حتي إنه نجح في إقناع الأمير البويهي "أبي كاليجار" بالدخول في مذهبه، ولكن ما لبث أن تغير عليه هذا الأمير وأخذت مكانته تهبط

استجاب لهم بعض الأهالي، وانتشر دعاة الشيعة وتفرّقوا في كل مكان بحجة الدفاع عن آل البيت وحقهم في الخلافة(١).

وكان المستنصر قد تولي الخلافة بعد وفاة أبيه "الظاهر" تحت وصاية أمه التي كانت لديها رغبة جامحة للحكم فظلت تحجر علي ابنها وتحكم دونه، حتي بعد بلوغه سن الرشد. فكانت دولة المستنصر عجيبة الوضع إذ كان هو وأمه كالشريكين في الخلافة، للمستنصر الخطبة والسكة والتلقب بإمرة المؤمنين ولأمه الأمر والنهي، حتي إنها كانت تتلقب بـ"السيدة الملكة"(٢) وقد بلغ من سطوتها وتسلطها أنها اتخذت لنفسها علامة للتوقيع علي المراسيم الرسمية للدولة وهي: "الحمد لله ولي كل نعمة"(٣).

ويذكر بعض المؤرخين(٤) أنها كانت تفتقر إلي الحزم والعقل فأفسدت الحكم بتدخلها، وتسببت في تقويض دعائم الدولة.

الفاطميون والقوي الشيعية في المنطقة العربية:

أخذت الخلافة الفاطمية في القوة والانتعاش مع بداية القرن الرابع الهجري (١٠م) تبعا لنشاط دعاة الإسماعيلية، لاسيما في المنطقة العربية، وكان نجاح المد الشيعي فيها سريعا.

أما سياسة الدولة الفاطمية نحو بلاد الجزيرة العربية في عهد المستنصر لاسيما بلاد الحجاز (مكة والمدينة)، فقد اتسمت بالنجاح في أول الأمر، ولكنها ما

حتي أحس أن حياته في خطر، وأيقن أن بقائه في شيراز غير محمود العاقبة، وظل متخفيا إلي أن فر إلي القاهرة سنة (٤٣٧هـ/١٠٤٥م) حيث إمامه المستنصر الفاطمي. ابن الأثير :الكامل في التاريخ، ح ٨ ص٨٣، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م .عبد المجيد أبو الفتوح بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتي سقوط بغداد ص١٢٨، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، المنصورة ١٩٨٨م . محمد جمال الدين : دولة الإسماعيلية في إيران، ص٩٠.

(١) مصطفي غالب: الدعوة الإسماعيلية ص٢٥٠. محمد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران ص٩.

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص٦٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم ج٥ ص٢٣ . الذهبي: العبر في خبر من غبر ج٣ ص٣١٨.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص٢٢٩. ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص٣٨٢.

لبثت أن اعتراها الضعف والفشل(١)، ويعود نجاحها في المقام الأول إلي الشخصيات القوية التي ساندت الدعوة وأعلت من شأنها في تلك البلاد(٢).

والمعروف أن الدعوة الفاطمية لم يكتب لها النجاح في منطقة المشرق الإسلامي

إذ كان أهلها وأمراؤها يستمدون شرعية وجودهم من الاعتراف بالخليفة العباسي . بينما استطاعت أن تستعيد مكانتها في بلاد اليمن بعد أن لاقي دعاتها كثيرا من العنت والاضطهاد، وانصراف أمراء اليمن، الذين كانوا يدينون بالطاعة لبني العباس إلي التنافس والتناحر فيما بينهم مما أدي إلي إحلال اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة محل الخليفة العباسي.

وكان الداعي"علي بن محمد الصليحي"(٣) قد وطد نفوذه في بلاد اليمن، وكتب إلي المستنصر بالله الفاطمي سنة (٤٥٣هـ) يستأذنه في إظهار دعوته، فعهد إليه بالولاية، وأذن له في نشر دعوته(١).

---

(١) كان العباسيون يتمتعون بالسيادة والنفوذ علي مكة والمدينة لا ينازعهم في ذلك منازع حتي أقام الفاطميون خلافتهم في بلاد المغرب فأخذوا يتطلعون إلي بسط نفوذهم علي الأراضي المقدسة في الحجاز حتي يكسبوا خلافتهم قوة في العالم الإسلامي، وقد تحقق لهم ذلك في خلافة المعز لدين الله حتي أقيمت الخطبة الفاطمية في كل من مكة والمدينة سنة ٣٥٨هـ، وأصبح الحجاز خاضعًا للنفوذ الفاطمي ومنذ ذلك الحين احتدم النزاع بين الخلافتين العباسية في بغداد، والفاطمية في القاهرة علي السيادة الرسمية علي بلاد الحجاز، وقد تمخض هذا الصراع عن محاولات عدة من كلا الطرفين علي هذه السيادة إذ أن ذلك سوف يكسبها سمعة طيبة في نظر العالم الإسلامي وينظر إليها عموم المسلمين علي أنها الخلافة الشرعية الواجب اتباعها. وكان في مكة في هذا العصر إمارتان، إمارة مكة وإمارة المدينة، وكانت إمارة مكة للحسنيين من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، في حين كانت إمارة المدينة للحسينيين من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وكانت الإمارتان تدينان بالولاء للخلافة الفاطمية في مصر . أحمد عمر الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١-٤٨٧هـ) ص ٢٣ . محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٣، دار الفكر العربي، ط٤، القاهرة ١٩٧٣م

(٢) أبو المحاسن: النجوم ج٥ ص١٧.

(٣) الصليحيون: بنو صليح هي سلالة إسماعيلية المذهب حكمت اليمن ودانت بالولاء للفاطميين، ومؤسسها علي بن محمد الصليحي وذلك في سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) وينسب إلي قبيلة الأصلوح التي تعد حياً من الأحجور من حاشد بمدينة مسار عام (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) ثم استولي علي مدينة زبيد بعد أن قتل أميرها نجاح بالسم عام (٤٥٤ هـ - ١٠٦٢) ، ثم استولي علي صنعاء عام (٤٥٥هـ /١٠٦٣م) ثم استطاع أن يوحد اليمن جميعه حتي عدن فانتقل لصنعاء وجعلها عاصمة له. عبد المنعم ماجد: المستنصر بالله الفاطمي، ص٧٩ .

وكان الصليحي يحكم اليمن علي اعتبار أنه نائب عن الخليفة الفاطمي، وتبودلت الرسائل الودية بين الطرفين والتي تبين ما كان بينهما من علاقة وصلة وثيقة(٢) .

وأمام هذا النجاح حاولت الخلافة الفاطمية أن تركز جهودها علي المنطقة العربية فأرسلت الدعاة إلي العراق وبخاصة بغداد، وظهر ذلك جليا في نشاط دعاة الإسماعيلية في بلدان الخلافة العباسية، لاسيما أن النفوذ الشيعي قد زاد في بغداد نتيجة تشجيع "بني بويه" له، ونلمس هذه الروح والميل الصريح نحو الفاطميين من قبل البويهيين في محاولة "معز الدولة" من الكشف عما في قلبه بالبيعة للخليفة الفاطمي؛ لولا أشار عليه أصحاب النظرة الثاقبة من أتباعه بترك هذا الأمر خوفا علي سلطانه ونفوذه(٣).

وكان نتيجة ذلك أن سادت العلاقات الودية بين الأمير"عضد الدولة بن ركن الدولة" والخليفة الفاطمي "العزيز بالله" (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) في مصر، وبخاصة أن البويهيين رغم حرصهم الشديد علي نفوذهم السياسي كانوا يؤثرون الفاطميين علي العباسيين(٤).

بيد أن هذا التعاون ظل محصورا في صيغة الدفاع المشترك والمصالح السياسية دون التطرق إلي المسائل العقدية، ولا إلي الشؤون الداخلية، لأن البويهيين كانوا يدركون الخطر الذي يتهدد نفوذهم السياسي من استفحال الخطر الفاطمي حال تدخلهم في الأمور الداخلية لهم، لما في ذلك من تهديد مصالحهم التوسعية، والذي بدا واضحا من محاولتهم مد نفوذهم خارج حدود العراق(٥).

علي أن سياسة الانسجام والتودد القائمة بين الخليفة الفاطمي وعضد الدولة ما لبثت أن تبدلت بعد ذلك، وبخاصة بعد أن وضع الفاطميين أيديهم علي بلاد الشام، وأدرك "عضد الدولة" خطورة دعوتهم علي كيانه السياسي، حتي يقال

---

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٨٢ .
(٢) السابق: ص٨٣ .
(٣) عبد المنعم ماجد: المستنصر بالله الفاطمي، ص٧٩.
(٤) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية، ص ٧٣.
(٥) العوفي: العلاقات السياسية، ص ٦٤، ٦٥ .

إنه تأهب لقصد مصر وانتزاعها من أيدي الفاطميين بعد أن أحس بالخطر الداهم الذي يتهدد سلطانه، ولكن توفي قبل أن يكمل مشروعه(١).

ويمكن القول أن علاقات الفاطميين والبويهيين غلب عليها في كثير من الأحيان المصالح المشتركة خاصة أنهما ينتميان لمذهب ومعتقد واحد الأمر الذي فرض عليهما التعاون والتآزر، إلا أن هذا التعاون كانت تمليه المصالح السياسية المتعلقة بكل من الطرفين(٢).

كما أتيحت للخلافة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر الفرصة في ضم العراق إلي ملكه والقضاء علي الخلافة العباسية عدوتها اللدود، وذلك عن طريق أحد قواد بني بويه(٣) الأتراك ويدعي "أبو الحارث البساسيري"الذي أخذ يرتقي في المناصب حتي عينه الخليفة "القائم بأمر الله" (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م) رئيسا للأتراك(٤).

وكعادة الأتراك عندما يأنسون ضعفا من السلطة القائمة فإنهم يستبدون بالنفوذ والسلطان، وهذا ما حدث إذ استبد البساسيري بالسلطة في بغداد دون الخليفة، ولم يعد للأخير معه أمر ولا نهي وكذا الأمير البويهي، ولكن ظهور السلاجقة السنيين(٥) قضي علي هذا النجاح في العراق(٦)، فكان النجاح الفاطمي

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) العوفي: العلاقات السياسية، ص ٦٧ .

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص٢٢٩.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص٢٣٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص١٩٢، الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٣ ص٢٢٥ .

(٥) السلاجقة: يرجع أصل السلاجقة إلي الترك الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة التي تمتد من حدود الصين حتي شواطئ بحر قزوين، وقد كثرت هجرتهم إلي المناطق الإسلامية في إيران وقت انهيار الدولة السامانية حيث المراعي الوفيرة، وقد عرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلي زعيمهم " سلجوق بن دقاق " الذي جمع شملهم ووحدهم تحت زعامته وخضعوا لحكم أبنائه واحفاده من بعده، ومن أشهر ملوكهم" طغرل بك "و"ألب أرسلان" و"ملك شاه" .الحسيني: زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص٢٣، تحقيق د. محمد نور الدين، دار اقرأ، ط١، بيروت ١٩٨٥ .

(٦) بعد أن رتب "طغرل بك" أركان الدولة السلجوقية لم يبق أمامه سوي إعطاء دولته الصبغة الشرعية والحصول علي موافقة الخليفة العباسي علي قيام دولتهم، فكتب رسالة إلي الخليفة "القائم بأمر الله" سنة (٤٣٢هـ/١٠٤٠م) أظهر فيها ولاءهم له، وحبهم للجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وطلب في نهاية الرسالة أن يعترف الخليفة بقيام دولتهم، وبأن يكون هو سلطانا عليهم . ولما كانت الظروف في بغداد مهيئة لاستجابة الخليفة لرسالة السلاجقة،

أشبه بالسراج الذي يلتهب عند إطفائه، بل إن السلاجقة ما لبثوا أن استولي علي أجزاء من بلاد الشام التي تعب الفاطميون في ضمها، كما أصبحوا يهددون خلافتهم في مصر(١).

ويدخول السلاجقة بغداد سنة(٤٤٧هـ/١٠٥٥م) بدأت مرحلة جديدة من الصراع مع البساسيري، الذي اتصل بالخليفة الفاطمي في مصر وطلب منه النجدة للسيطرة علي بغداد وطرد السلاجقة منها، الأمر الذي لقي ترحيبا كبيرا في نفس المستنصر الذي أخذ يستشعر الخطر الذي يهدد نفوذه في الشام، لاسيما بعد زوال النفوذ البويهي في العراق، فلم يدخر وسعا في تقديم العون العسكري والمادي للبساسيري(٢). وبالفعل سيطر البساسيري علي بغداد سنة(٤٥٠هـ/١٠٥٨م) وعزل الخليفة العباسي من منصبه، وخطب فيها للخليفة الفاطمي في مصر ما يقرب من عام(٣).

ولكن بعد انتصار السلطان طغرل بك علي أخيه "إبراهيم ينال"(٤) وقتله، ثم عاد مسرعا إلي بغداد وذلك في أواخر سنة (٤٥١هـ/١٠٥٩م) فحارب البساسيري

أصبح الطريق ممهدا لدخولهم بغداد سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) . الحسيني: زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص٢٣، تحقيق د/ محمد نور الدين، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٢م.

(١) كانت الخلافة العباسية عادة عندما تضطرب أمورها من الداخل تتطلع دائما إلي من ينقذها من الخارج، ودليل ذلك أنها حاولت منذ وقت مبكر أن تتغلب علي مشكلاتها باستخدام العنصر التركي، وعندما ساءت أحوالها بسبب تسلطهم رحبت بدعوة البويهيين لدخول بغداد سنة (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) وعندما وجدت أن وضعها في ظل البويهيين في تدهور مستمر حاولت أن تجد لها منقذا جديد كي ينقذها من كبوتها، وكان السلاجقة هم هذا المنقذ. عبد الحميد أبو الفتوح بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص١٠٦.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ٩ ص٢٠٥، ٢٠٦ .

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨ ص١٦٣.

(٤) إبراهيم ينال: هو الأخ غير الشقيق للسلطان "طغرل بك" السلجوقي الذي استماله ممثل الفاطميين "المؤيد في الدين الشيرازي" بهدف شق صفوف السلاجقة، وقام بتحريضه علي أخيه السلطان، مما اضطر الأخير للخروج لقمع تمرده في إقليم الجبال تاركا بغداد، وبذلك خلت بغداد من الجيش السلجوقي، فانتهز البساسيري الفرصة وهاجم بغداد واستولي عليها وعزل الخليفة العباسي وخطب فيها للخليفة الفاطمي . ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٣٤١، ٣٤٢.

وقتله وأعاد الخليفة العباسي إلي منصبه، وبذلك تخلصت الدولة العباسية من خصم عنيد كاد يعصف بالخلافة (١) .

تدهور الأوضاع في عهد المستنصر:

كانت الدولة الفاطمية في أول عهدها علي قدر كبير من القوة والنفوذ والبهاء، لاسيما في عهد "المعز لدين الله" و" العزيز بالله" و"الحاكم بأمر الله" الذين حرصوا علي تماسكها حرصا شديدا، ولكن بعد وفاة هؤلاء الخلفاء الأقوياء جاء من بعدهم خلفاء ضعاف نشب بينهم الصراع الذي احترقت البلاد بناره .

ولاشك أن الدولة الفاطمية شأنها شأن كثير من الدول . وقد أشار "ابن خلدون"(٢) في مقدمته، أن الدولة تمر بعهدين متميزين: الأول عهد قوة وشباب الدولة، والثاني عهد ضعفها وشيخوختها، وإن جاءت هذه الشيخوخة مبكرة نتيجة للمرض المبكر الذي أصابها، بل يمكن القول أن المرض كانت تحمله منذ تأسيسها، ولكنه لم يظهر بوضوح إلا بعد مرور فترة احتضان المرض(٣).

ونستطيع القول أن القرن الخامس الهجري(١١هـ) كان عصر الجزر الفاطمي، والمد السلجوقي في منطقة المشرق العربي، ويرجع هذا الجزر إلي الضعف والتفكك الذي دب في أوصال الدولة الفاطمية، بعد أن دبت فيها عوامل الفساد، فكان خلفاؤها يتولون الخلافة صغار السن لا يملكون من أمرهم شيئا، وكان المتصرف في دولتهم الوزراء، والقواد، وسيدات القصر، والخدم، فضلا عن الإسراف البالغ والبذخ، الأمر الذي انعكس علي الأداء الاقتصادي للدولة، فأثر هذا علي قدرة الدولة وجيشها، الذي لم يعد يقوي علي الصمود أمام الفتن والثورات الداخلية.

والحقيقة أن القرن الخامس الهجري يكاد يجنح إلي القلق في تاريخه أكثر من الاستقرار، حيث شهد في بداياته نماذج مختلفة من التيارات والعصبيات التي أفرزها الصراع علي السلطة، وكان بديهيا أن يستقطب كل طرف مناصريه المتحمسين، أو يحاط بالخصوم الألداء، فينعكس ذلك مباشرة علي تجاذب القوي بصورة أشد حدة، لاسيما في عهد المستنصر الذي كان عهده أكثر فترات الخلافة

---

(١) البنداري: آل سلجوق ص٦٥.

(٢) المقدمة: ص٣٨.

(٣) وفاء محمد علي: الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، ص ١٠٥ .

الفاطمية قلقا، رغم طوله، وكانت معطياته السياسية تشير دائما إلي ضعف السلطة المركزية نتيجة الظروف المعاكسة.

عانت مصر في عصر الخليفة المستنصر الفاطمي ـ الذي وصف بأنه ضعيف الشخصية، قليل التجربة ـ من اضطراب في الأحوال السياسية والاقتصادية، وافتقرت إلي الهدوء والاستقرار قاست كل طوائف الشعب من ذلك، فلم ينجح في معالجة المشاكل الجذرية في عهده، ولم يقف الأمر عند حدود الخلافات السياسية بين طوائف الجند من مغاربة وأتراك وسودانيين بغية النفوذ والعائد المادي، بل تجاوز ذلك إلي الخلافات المذهبية الدامية بين السنة والشيعة التي تدخل الفاطميون فيها، وصبغها بالصبغة الشيعية، كما تعرضت الدولة لهزات عنيفة نتيجة حركات المتغلبين في الأقاليم، وسوء الأحوال الاقتصادية، ووقفت الخلافة الفاطمية إزاء هذه التطورات مكتوفة اليدين لا تقوي علي فعل شيء بعد أن وصلت إلي مرحلة حرجة من الإنهاك، وعلي الجملة كان الحكم الفاطمي في معظم مراحله لعنة حلّت بالديار المصرية(١).

فثروة البلاد لم تكن موزعة توزيعا عادلا، ففي حين تدفقت الأموال علي الأمراء وكبار رجال الدولة وحاشية الخلفاء.

ومما زاد الطين بلة انغماس الخلفاء في اللهو والمجون غير مكترثين بما في خزائنهم من أموال، ولا فيما ينبغي أن ينفق منه علي مرافق الدولة، وإعداد الجيوش بالعتاد المادي والحربي، وفسد نظام الحكم فسادا لا حد له، وأفرخت بيئة شاعت فيها الرشوة والسرقات والنكبات والمصادرات ويعلل "ابن خلدون"(٢) انحلال البيت الفاطمي بكثرة الترف، وتحول الوزراء أيضا إلي لصوص ينهبون أموال الدولة، بينما كان الشعب يعيش أشد صنوف البؤس والشقاء، كل ذلك جعل العلاقة بين مؤسسات الدولة وعلي رأسها الخلافة تقوم علي أساس الحذر والتربص، وفساد الطوية.

---

(١) صلاح الين علي عاشور: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥.٤٦٥هـ/١٠٦٣.١٠٧٢م) ص١٧٠،١٦٩، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية اللغة العربية بالقاهرة ، ١٩٩٣م.

(٢) المقدمة: ص٢٣ .

وفي هذا الجو المشحون بالاضطرابات لا غرابة إذاً أن تتأهب النفوس، وتتطلع لظهور مصلح يستطيع أن يجمع شتات الدولة ويطهرها من الأدران.

المستنصر والأتراك:

تعتبر خلافة المستنصر(٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م) فترة انتقال بين عهدين، الأول عهد سيطرة الوزراء علي مقدرات الدولة الفاطمية مع بقاء هيبة الخلافة، والثاني هو عهد سيطرة الأتراك مع زوال هيبة الخلافة وهبوط مكانة الخلفاء.

ومن المعروف أن بأس الأتراك قد أخذ في التغلغل في الدولة الفاطمية، حتي أصبح بيدهم الحل والعقد، فما كاد عصر الظاهر ينصرم ويخلفه ابنه المستنصر حتي كان سلطانهم قد بلغ أوجه، لاسيما بعد أن تولي ناصر الدولة بن حمدان رئاستهم . فلا عجب أن امتلأت نفوس الفاطميين حقدا عليهم، وأن تنقطع أسباب المودة والطمأنينة بينهما، خاصة بعد اتباعهم تلك السياسة النفعية التي اشتهر بها أمراء الترك التي تعود إلي وحشية البداوة منذ نشأتهم الأولي.

والمعروف أن عصر المستنصر الفاطمي تميز علي امتداده الطويل بضعف نفوذه وتقلص سلطانه لصالح العناصر الوافدة لاسيما الوزراء، حتي تحول لمجرد نفوذ ديني أشبه ما يكون بنفوذ البابوية في العالم المسيحي في القرون الوسطي، مما جعل أحوال الحكم تسوء(١).

ولعل أكبر أزمة تعرض لها حكم المستنصر هو تغيير الوزراء بسرعة مذهلة بحيث كانوا يتساقطون تساقط أوراق الشجر، ففي أربع سنوات عين علي حسب تقدير صاحب كتاب أخبار مصر(٢) عشرون وزيرا، وكان بعضهم يمكث يوما أو أياما، وقليل منهم من مكث شهرا أو شهرين، ونادر منهم من ظل سنة أو بعضها.

ويبدو أن تعيين أغلبهم جاء عن طريق الوسطاء ممن يخالطهم المستنصر وأمه، بل عن طريق طوائف الجيش الفاطمي، حتي كانوا يقتلون وزيرا أو

---

(١) ماجد: المستنصر، ص٣١ .

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٢٣.

يعزلونه(١)، وكانت النتيجة الحتمية لذلك ضياع هيبة الدولة، واندلاع الفتن، وهبوب العواصف العاتية التي كان لها أكبر الأثر في تاريخ الدولة الفاطمية .

كما حدث أيضا تحول خطير في تاريخ الدولة الفاطمية، لاسيما في عهد المستنصر، إذ غرب نجم العرب من المغاربة ولم يعد لهم شيء من النفوذ والسلطان وتحول النفوذ كله والسلطان إلي يد الجنود الترك وأمرائهم .

كان الفاطميون قد استكثروا من الترك في جيوشهم حتي زاد عددهم زيادة كبيرة، وكوّنوا منهم فرقا في الجيش يقودها أحدهم، وكانت هذه الفرق في عزلة تامة عن بقية الجيش، حتي استبدوا بالنفوذ والسلطان .

في أيام "المستنصر" الفاطمي ظهر التنافس والتشاحن بين هاتين الطائفتين (الأتراك والسودانيين) مما كان له أكبر الأثر في عدم استقرار الأوضاع الداخلية لفترة ليست بالقليلة(٢).

فقد نشبت بين الفريقين معارك عنيفة، وقف فيها المغاربة إلي جانب الأتراك، فأوقعوا بالسودانيين الهزيمة رغم المساعدات التي قدمتها لهم أم المستنصر لكونها سودانية الأصل مما اضطر عدد كبير منهم للفرار إلي صعيد مصر هروبا من سطوة الأتراك.

ولما أراد الخليفة المستنصر القبض علي زمام الأمور في الدولة، وفرض نفوذه اصطدم بقوة الأتراك الذين أصبحوا مصدر قلق واضطراب في الدولة الفاطمية حتي سيطروا علي الولايات وعلي الجيش وعلي إدارة الدولة، بل امتدت سيطرتهم إلي قصر الخلافة وتدخلوا في الإدارة السياسية للدولة وحركوا الجهاز السياسي، وشيئاً فشيئاً ضعف نفوذ الخليفة ولم يعد قادراً علي الانفراد بإدارة شئون الدولة كما

---

(١) شهد عصر المستنصر تدهور كبير في مركز الوزارة، وكان هؤلاء الوزراء يعيشون في نعيم لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعيات، وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة حتي راجت الرشوة وعم الاختلاس . ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا الإسراف في تغيير الوزراء وتبديلهم نتيجة لتدخل الأمراء الأتراك، فيقولون أن ناصر الدولة بن حمدان لما استبد بالأمور في مصر صرف "ابن ابي كدينة" من الوزارة وأعاد المليجي فلم يبق غير خمسة أيام وصرف، وأعيد ابن أبي كدينة، وجمع له بين الوزارة والقضاء معا في ربيع الأول، فأقام فيها إلي جمادي الأولي، وصرف عن القضاء بجلال الملك، فأقيم في منصب القضاء إلي رمضان، فصرف عن القضاء بالمليجي، فأقام المليجي إلي يوم النحر، ثم صرف وتولي ابن أبي كدينة. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢ ص٢٧٦ .

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص٦٣.

كان الحال في العصر الفاطمي الأول، بل أصبح الخليفة خاضعاً لهم، واكتفي بموقعه الفخري.

وكان يتزعم قيادة الأتراك في تلك الفترة قائد عسكري بارز يدعي "ناصر الدولة بن حمدان التغلبي" من نسل الحمدانيين الذين فروا إلي مصر بعد قضاء البويهيين علي دولتهم في الموصل، فقدمه الخليفة المستنصر علي جميع قواده، ورفع من شأنه حتي صار مشارا إليه بين أقرانه(١).

وكان استبداد "ناصر الدولة" في دولة الفاطميين قد ظهر منذ أن تزعم الأتراك، حيث كان أفراد أسرته يتولون زمام الأتراك وأمراءهم منذ عهد الحاكم(٢).

وقد وصل استبداد "ناصر الدولة" بالمستنصر أقصاه حينما أظهر الحقد في نفسه ضد الخلافة التي أسقطت أسرته، بحيث فكر في خلع المستنصر وإعلان الخطبة لأحد الأشراف، رغبة منه في الانتقام والكيد، فكتب إليه المستنصر قائلا: "إنك قدمت علينا زائرا، وجئتنا ضيفا، فقابلناك بالإحسان وأكرمناك، فقابلتنا بما لا نستحقه منك، ونحن، عليك صابرون، وعنك مغضون، وقد انتهت بك الحال إلي محالفة العسكر علينا، والسعي في إتلافنا، وما ذاك مما يهمك، ونحب أن تنصرف عنا فورا في نفسك وما لك، وإلا قابلناك علي قبيح أفعالك"(٣).

وما لبث أن تعرض "ابن حمدان" لمحاولة اغتيال عن طريق أحد الصيارفة، فضربه الصيرفي بسكين فجرحه، فأخذ الأخير وشنق في الحال، وعولج ناصر الدولة، فبرئ بعد أن أشرف علي الموت(٤).

ويبدو أن المستنصر هو الذي فتح الباب علي مصراعيه أمام "ابن حمدان" وجعله من كبار قواده حتي إنه أوكل إليه ولاية "دمشق"(٥) سنة (٤٣٣هـ/١٠٤١م)

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٣٩٧.

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة إلي من نال الوزارة ص ٤٥. تصحيح : عبد الله مخلص، طبع المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩٢٤م. ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٢٣.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥ ص٨٣.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٢٣.

(٥) دمشق: قصبة بلاد الشام، سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها (أي أسرعوا). ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٤٦٣.

بعد موت "الدزبري" فكان الدعاء في سجله يخرج "سلّمه الله وحفظه" كما منحه لقب "ناصر الدولة" و"سيفها ذي المجدين"(١) .

وقد استمر ناصر الدولة في ولاية دمشق حتي سنة (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) ثم عاد إلي مصر، وربما يكون ناصر الدولة هو الذي أشار علي "أم المستنصر" بتولية الوزارة "لليازوري"(٢) الذي أرسل له أحمال التفاح كرشوة (٣).

فلما تولي "اليازوري" الوزارة، أعطي ناصر الدولة حكم الريف بشرقيه وغربيه، فكان ناصر الدولة يجبي الجوالي (الجزية المفروضة علي أهل الذمة) من النصاري، ويقررها كلها علي البطريرك القبطي.

وفي سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) طلب المستنصر من ناصر الدولة أخذ حلب من "المرداسيين"الذي تطلعوا إلي الاستقلال، مثلما فعل الحمدانيون من قبل، ولكن حملته باءت بالفشل فعاد إلي مصر سنة (٤٥٢هـ/١٠٦٠م)(٤).

وكان طموح ناصر الدولة قويا، وبدأ في الكشف عن نفسه منذ عهد المستنصر، لاسيما بعد أن أصبح رجل الفاطميين القوي، والاسم المطروح دائما لتولي المهام الصعبة، وكان يرفض الاكتفاء بما حققه من نفوذ لم يصل إليه وآل آخر، فأخذ يعد نفسه لهذا الهدف خاصة بعد إن التف حوله العديد من الأنصار والأتباع من الأتراك وغيرهم .

وقد بدأت زعامة ناصر الدولة عندما انحاز ضد العبيد الذين كانت تناصرهم "أم المستنصر" فيذكر المقريزي(٥) في حوادث سنة (٤٥٩هـ/١٠٦٧م): "فيها قويت شوكة الأتراك واشتد بأسهم، وطلبوا الزيادات في واجباتهم ورواتبهم، وساءت أحوال العبيد وكثر ضررهم وهم يتزايدون، حتي صار منهم بالقاهرة ومصر وما في

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٥٦.

(٢) اليازوري: هو أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري، قاضي قضاة الدولة الفاطمية، ينتمي إلي أسرة من أهل "يازور" (قرية من أعمال الرملة بفلسطين" تعلق بخدمة والدة المستنصر حتي تولي الوزارة، وكان حنفي المذهب، اتهم بالتواطؤ مع العباسيين للقضاء علي الفاطميين، وقتل سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م).ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص١٨٣.
ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٦٣٥.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٢١.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٣٩٨.

(٥) اتعاظ الحنفا : ج٢ ص ٢٧٣ .

ظواهرهما من القري نحو خمسين ألف عبد، ما بين فارس وراجل" وخلت خزائن أموال المستنصر وضعفت الدولة(١).

فأرسلت السيدة "أم الخليفة المستنصر" إلي قواد العبيد تغريهم بالأتراك وتحثهم علي الإيقاع بهم ومحاربتهم وإخراجهم من مصر؛ فاجتمع قواد العبيد وحشدوا طوائفهم، وساروا إلي "شبرا دمنهور" ومنها إلي الجيزة، فخرج إليهم الأتراك يريدون محاربتهم، وقد بلغت النفقة في وصولهم إلي الجيزة ألف ألف دينار، وحين التقي الجيشان انجلت المعركة عن كسرة السودانيين (العبيد) وفرارهم إلي الصعيد(٢).

وأسفرت المعركة عن اشتداد شوكة ناصر الدولة وعظم قدره ونفوذه فعاد بالأتراك إلي القاهرة، بينما تلاحق العبيد واجتمعوا في بلاد الصعيد، وكان عددهم قد تجاوز الخمسة عشر ألفا ما بين راجل وفارس، فساء ذلك الأتراك وأقلقهم، فصار أكابرهم إلي المستنصر وشكوا إليه أمر العبيد(٣).

فأمرت "أم المستنصر" جماعة ممن كان عندها من العبيد أن يقتحموا علي الأتراك فهاجموهم علي حين غفلة وقتلوا منهم جماعة(٤).

حينئذ خرج "ابن حمدان" إلي ظاهر القاهرة، وتسارع إليه الأتراك وقد استعدوا لمحاربة العبيد الذين كانوا بالقاهرة ومصر وحلف ابن حمدان ألا ينزل عن فرسه حتي يقضي علي العبيد وثبت كل منهما، فكانت الكرة لابن حمدان علي العبيد، ووضع السيف فيهم وتجاوز الحد في قتلهم، وتتبعهم في كل مكان حتي لم يدع في القاهرة ومصر منهم إلا قليلا ففر أغلبهم إلي الصعيد والإسكندرية، فرأي ابن حمدان أن يبدأ في محاربة من فر منهم إلي الإسكندرية، فسار إليها، وحاصر العبيد بها، وظل يقاتلتهم حتي طلبوا منه الأمان، فأقام علي ولايتها رجلا من ثقاته(٥).

وكان ناصر الدولة قد إزاد نفوذه في القاهرة مستغلا غياب القوي المنافسة له، لاسيما السودانيين الذين تركوا له الميدان، فأخذ يطالب الخليفة المستنصر

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٣٩٨.
(٢) اتعاظ الحنفا : ج٢ ص٢٧٣ .
(٣) السابق : ج٢ ص ٢٧٣ .
(٤) اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢٧٣ .
(٥) السابق: ج٢ ص٢٧٤ .

بزيادة رواتبهم، حتي إنهم حاصروا قصره مطالبين بذلك، وكانت مقرراتهم في كل شهر ثمانية وعشرين ألف دينار، وطلبوا أن تكون أربعمائة ألف دينار في كل شهر، وتوجهوا إلي دار الوزير "ابن أبي كدينة" يريدون الأموال، فقال: وأي مال بقي؟ الريف في يد فلان والصعيد في يد فلان والشام في يد فلان، فطلبوا منه مخاطبة الخليفة ليعلمه بمطالبهم، فكتب الوزير رقعة إلي المستنصر يذكر فيها حضورهم وما يطلبون، فجاء الرد بخط المستنصر مكتوب فيه:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي إلا إلهي، وله الفضل

جدي نبيي، وإمامي أبي وقولي التوحيد والعدل

المال ما الله، والعبد عبد الله، والإعطاء خير من المنع(١) "وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ"(٢).

وعلي الرغم من استجابة المستنصر لمطالبهم، إلا أنهم لم يقنعوا بتلك الزيادة وطالبوا بالمزيد، مما اضطر المستنصر أن يبيع متاعه لإرضائهم، وهم يأخذونها لأنفسهم، ويبعونها بأقل وأبخس الأثمان.

ويذكر المؤرخون في حوادث سنة (٤٦٠هـ/١٠٦٨م) أنه في هذه السنة:"اشتد البلاء علي المستنصر بقوة الأتراك عليه وطمعهم فيه، فانخرق ناموسه، وتناقصت حرمته، وقلت مهابته، وتعنتوا في زيادة واجباتهم، وحاصروا الخليفة وأخذوا جميع الأموال، ثم اقتسموا الأعمال فيما بينهم .

ابن حمدان في الصعيد:

بعد أن تخلص ابن حمدان من الصعوبات التي واجهته في القاهرة والإسكندرية، وقضي علي المعارضة الداخلية في القاهرة والمتمثلة في نفوذ الخليفة الفاطمي ووزيره بدأ مرحلة الإيجابية، وهي الانقضاض علي الصعيد للتخلص من المؤامرات التي تحاك ضده، لاسيما وأن قوة العبيد كانت لا تزال صلبة، بعدما كثر عددهم وتزايد شرهم، وعم الكافة أذاهم وإفسادهم، وأنهم أخذوا يتجهزون لحربه .

---

(١) السابق: ج٢ ص٢٧٥ .

(٢) سورة الشعراء : آية ٢٢٧ .

وعلي الرغم من الاستعدادات والتجهيزات الحربية التي قام بها ناصر الدولة حتي قيل إن النفقة بلغت عليه وعلي من معه ألف ألف دينار إلا أن المعارك بينه وبين العبيد انجلت عن هزيمته هو ومن معه وفراره إلي البحيرة(١).

ولما حلّت الهزيمة بـ"ابن حمدان" بدا عاجزا عن ضبط الأمور في مواجهة العبيد، الأمر الذي دفعه إلي جمع شتات الأتراك للثأر من العبيد والانتقام منهم . يقول المقريزي في ذلك: "فتلاقي بعضهم ببعض وصاروا يدا واحدة علي المستنصر، وألبو عليه، واتهموه بأنه بعث إلي العبيد بالأموال في السر ليقويهم علي محاربة الأتراك وجهروا له بالسوء من القول"(٢).

وعلي الرغم من أن المستنصر أكد لهم أنه لم يبعث إليهم بشيء، ولم يمدهم بمعونة حتي ذكر أنه أعطاهم أموالا كثيرة ليعوضهم علي ما فقدوه، وليتقوا بها علي محاربة العبيد قدّرها البعض بألف ألف دينار.

والمؤسف أن العبيد قد أخذوا يعيثون فسادا في مدن الصعيد، ونهبوا الأسواق، وقوي أمرهم وأخذوا يثيرون الخوف والفزع بين الأهالي، حتي اعتقد الجميع أن هيبة الخلافة قد تلاشت، وهنا وجد ناصر الدولة أن يتدخل سريعا لمجابهتهم وإلا ضاع كل شيء، فسار مسرعا إليهم هو وجنوده، لاسيما وأن ميزان القوي أخذ في التغير لصالحه وخاصة في ميدان العمليات العسكرية، الأمر الذي مكنه من إلحاق عدة هزائم العبيد، وقتل كثير منهم، ولم ينج منهم إلا القليل، وزالت حينئذ دولتهم(٣).

الوحشة بين الأتراك وناصر الدولة:

ما إن حقق "ابن حمدان" النصر علي العبيد في الصعيد حتي أحس بزيادة نفوذه وأخذ يمكن لنفسه في البلاد، واستبد بالأمور دون الأتراك واستولي علي أموالهم ومتاعهم، فنافسوه وحسدوه، وذهبوا إلي الوزير "ابن أبي كدينة" وشكوا له تفرد ابن حمدان بالأمر، واستيلاءه علي ما يخرج من أموال من الخليفة وقالوا له: "كل ما خرج من الخليفة من مال أخذه ناصر الدولة وفرّق أكثره في حاشيته، ولا

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢٧٦ .
(٢) السابق: ج٢ ص ٢٧٦ .
(٣) السابق: نفس الجزء والصفحة .

ينالنا منه إلا الشيء القليل" . فقال لهم: "إنما وصل ناصر الدولة إلي هذا وغيره مما هو فيه بكم، ولولا أنتم لما كان له من الأمر شيء، ولو أنكم فارقتموه لانحل أمره"(١).

وهنا اتفق الأتراك عليه، وعلي محاربته حتي يظفروا به ويخرجوه من مصر ودخلوا علي الخليفة المستنصر وسألوه أن يبعث إلي ناصر الدولة يأمره بالخروج من البلاد، وتهديده إن لم يخرج، فبعث إليه الخليفة برسالة طالبه فيها بالرحيل عن القاهرة حقنا للدماء، فخرج منها قاصدا "الجيزة"(٢) فامتدت الأيدي عند خروجه إلي دوره ودور حاشيته وأصحابه، وانتهبتها وأفسدتها(٣) .

انقسام الأتراك بين الذكز (بلدكوش) وناصر الدولة:

المتتبع للمصادر التاريخية يري أن "ناصر الدولة" لم تكن لدية النية في إزالة الدولة الفاطمية عن مصر، وإعلان ولاءه للعباسيين، سوي الانتقام من العبيد (العنصر المنافس للأتراك) والسعي للمزيد من الثراء والنفوذ إلي سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م)، عندما ثغير عليه الأتراك أنفسهم، واتهموه بالاستبداد بالأموال التي تصل إليه من الخليفة، وتفريقها علي حاشيته وأقربائه(٤).

ولم يلبث "ناصر الدولة" أن بدا يتشكك من الأتراك وزعمائهم فعمل علي الاعتماد علي العرب، ففك أسر زعيمين من بني الجراح(٥) كانا خارجين عن طاعة

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢ ص٢٧٨ . محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص١٧٦، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢ ص٢٧٦ .

(٣) السابق: اتعاظ الحنفا، ج٢ ص٢٧٧.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص١٨. العوفي: الدولة الفاطمية ص١٩٠، ١٩١.

(٥) بنو الجراح: أسرة عربية من قبيلة "طي" اليمنية، استوطنت أول الأمر المناطق الشمالية من الصحراء العربية، ثم تفرقوا في صدر الإسلام وانتشروا مع الفتوحات الإسلامية في الحجاز والشام والعراق. وفي القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة أصبحت رئاسة طي لبني الجراح الذين استوطنوا فلسطين، وتمكنوا من إقامة إمارة لهم ذات كيان ونفوذ. والواقع أن بني الجراح الطائيين لم يستطيعوا إقامة عاصمة ثابتة لهم في فلسطين، عدا بعض الفترات القصيرة التي اتخذوا فيها من الرملة مقرا لهم. القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ص٧١، ٧٢ تحقيق، إبراهيم الإبياري، دار الكتب الحديثة، ط ١ القاهرة ١٩٦٣م.

الخليفة الفاطمي(١) وهما: "حازم بن الجراح" و"حميد بن الجراح" وذلك بعد أن مكثا كليهما في سجن المستنصر عشرون عاما، وأحاط نفسه بشخصيات من العربان مثل: أمير العرب "ابن كيغلغ" و"الأعز بن سنان" . كما اعتمد علي طائفة الأكراد التي كانت ضمن جيوش الخلافة الفاطمية، وكانت عددهم يزيد عن خمسة آلاف رجل برئاسة رجل لعله "تاج الدين شادي" حتي أصبحت هذه الطائفة من أنصاره تعرف باسم: الطائفة الحمدانية(٢).

ومن المحقق أن تلك الإجراءات قد أثارت سخط الأتراك وقائدهم المسمي "إلدكز" أو "بلدكوش" الملقب بـ"أسد الدولة"، واستهانة ناصر الدولة بهم، الأمر الذي

---

(١) لعب بنو الجراح الطائيين دورا مهما في تاريخ بلاد الشام علي وجه العموم، وتاريخ فلسطين علي وجه الخصوص في الفترة من سنة (٣٥٨ . ٤٣٣ هـ /٩٦٨ . ١٠٤١ م) والذين اتخذوا سياسة متقلبة إزاء القوي المسيطرة علي تلك البلاد كالفاطميين، والبيزنطيين، والأمراء والولاة المحليين. والحقيقة أن بني الجراح كانوا يرون أنهم لا يقلون عن غيرهم من القوي المحلية التي نجحت في إيجاد كيان سياسي لهم داخل أملاك الدولة العباسية، ومن ثم قاموا بدور مهم في توجيه سير الأحداث بالمنطقة في تلك الفترة. غير أن طبيعتهم القبلية، وشدة قبضة القوات الفاطمية علي المناطق الجنوبية من بلاد الشام حالت بينهم وبين تحقيق أحلامهم في تكوين إمارة خاصة بهم في فلسطين، فاكتفوا بالاعتراف بهم كزعماء للقبائل المحلية في المنطقة . وقد اشتهر من هذه الأسرة:"حسان بن الجراح" الذي قام بدور مهم في كثير من الأحداث التي جرت في هذه المنطقة. أما عن علاقة بني الجراح بالفاطميين فكانت مضطربة لا تثبت علي حال، فتارة نجدهم يقفون إلي جانب الفاطميين ويساعدونهم ضد من يثور عليهم، وتارة أخري ينضمون إلي خصومهم. ويري البعض أن الدافع من وراء ذلك هو رغبة بني الجراح في الحصول علي المال بأية وسيلة، والدليل علي ذلك أن "الحسن الأعصم القرمطي" أثناء هجومه علي مصر استعان بزعيم آل الجراح "حسان بن الجراح الطائي"، ولكنه تخلي عنه أثناء القتال هو وأتباعه، عندما راسله "المعز لدين الله الفاطمي" وأغراه بالمال، مما كان له أكبر الأثر في إضعاف القرمطي وهزيمته، وهذا يدل علي أن حسان لم يكن له هم سوي الحصول علي المال. هكذا نري أن بني الجراح كانوا يستغلون فترات الضعف التي تمر بها الدولة الفاطمية، ليثيروا في وجهها المشاكل، مستغلين في ذلك الصعوبات التي تواجهها من قبل الخارجين عليها، وكان هدفهم من وراء ذلك محاولة إثبات شخصيتهم، ومحاولة لانتزاع اعتراف الفاطميين بهم. بالإضافة إلي أن أمراء بني الجراح كانوا دائمي الإغارة علي قوافل الحجاج المصرية وإلزامهم بدفع مبالغ مالية كبيرة حتي يخلوا سبيلهم. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢٤ مكتبة المتنبي القاهرة (د.ت). المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ح ٢ص٩٩ . أمينة بيطار: موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتي أواخر القرن الخامس الهجري ص٨٦ ، دار دمشق للطباعة ط ١ ١٩٨٠م.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٣.

أدي إلـي انـشقاق الأتـراك إلـي فـرقتين: فرقـة تؤيـد "ناصـر الدولـة"، وفرقـة مـع "الدكر"(١).

وكان طبيعيا أن يفكر كل منهما في التخلص من الآخر، فسعي ناصر الدولة إلـي قتـل غريمـه إلـدكر، ووزيـره "خطيـر الملـك"، ولكنـه لـم يـتمكن إلا مـن قتـل الوزير(٢).

بعد ذلك استطاع ناصر الدولة أن يستولي علي الإسكندرية والريف بشرقيه وغربيه، وهو ما عرف بأسفل الأرض، وأحاط بدمياط واستولي عليها فعظم أمره، وأخذ الخراج من كل هذه البلدان(٣) .

وقطـع خطبـة المستنـصر فيهـا ودعـا الخليفـة العباسـي "القـائم بـأمر الله"، وأرسل يطلب تقليده، وصار يخاطب بمولانا الناصر، كما هاجم نواحي مصر والقاهرة حتي أجبر المستنصر علي قبول مندوب عنه اسمه "شادي" لعله من زعمـاء طائفـة الأكراد(٤).

خروج المستنصر لقتال ناصر الدولة:

أدرك الخليفة المستنصر الخطر الذي يهدد دولتـه مـن جانـب ناصـر الدولـة، فخرج لمحاربته وذلك بتحريض من "الذكر"، وضربت لـه خيمـة حمراء أطلق عليها "خيمة الدم" خارج القصر(٥) .

وتمكن "المستنصر" من هزيمة ناصر الدولة بمساعدة المصريين علي وجـه الخصوص، الذين نهبوا دور أنصاره، بينما فرّ ناصر الدولة إلي عرب الدلتا، فحالف قبائل "سنبس"(٦).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص٣٩٨.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ ص١٧.
(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٣
(٤) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٢٣. العوفي: الدولة الفاطمية ص١٩٠، ١٩١.
(٥) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٣٩٩.
(٦) سنبس: قبيلة عربية تعود بنسبها إلي طيئ، وهم ينسبون إلـي سنبس بن معاوية بن جرول بـن ثعـل بـن عمـرو بـن الغـوث، كـان الـوزير أبـو محمـد اليـازوري أقطعهـم البحيـرة سـنة (٤٤٢هـ/). لمزيد من التفاصيل انظر المقريزي: البيان والأعراب عما بأرض مصر ص٢٤. العوفي: العلاقات السياسية ص١٩١.

وخرجت العساكر التركية إليه من مصر بقيادة "ناصر الجيوش بن أسد الدولة"، ومن العبيد بقيادة "عزيز الدولة"، وجعلت القيادة العليا في يد "ابن زنبور" الذي خلع عليه المستنصر وقلده سيفا بحلية فوق درعه(١).

ودارت عدة معارك وصفت بالضارية، لكن الانقسام بين قادة الطوائف المتنافرة جعل كل قائد لا يرضي باتباع أوامر الآخر، بحيث وقعت الفرقة بين فرق الجيش الأمر الذي استغله ناصر الدولة لصالحه واستولي علي أسلحتهم(٢).

وقام أتباع ناصر الدولة بتخريب البلاد التي استولوا عليها وقتلوا أهلها، وهتكوا حريمها، وذبحوا الأولاد في بطون أمهاتهم، حتي وصل بهم الحال أن أخذوا البطريرك "الأنبا سطودلوس" من داره، ولم يتركوه إلا عندما وعدهم بدفع المال، ثم أرسل البطريرك مندوبا عنه إلي ملك النوبة ؛ ليرسل إليه مالا يدفعه لناصر الدولة ليفك أسره(٣).

كما تعرضت الأديرة في "وادي النطرون" لعدة غارات من العرب حتي الجئوا الرهبان إلي الهرب من أديرتهم إلي القري(٤). وتزامن ذلك مع الشدة العظمي التي تعرضت لها مصر في الفترة من (٤٥٩ــ٤٦٤هـ/١٠٦٦ــ١٠٧١م) فتوقفت الزراعة، وتركت الأراضي مهملة دون رعاية.

العباسيون وناصر الدولة:

لاشك أن ميول "ابن حمدان" السنية جعلته ينتهج نهجا جديدا فتحول من مجرد الانتقام من العبيد إلي الانتقام والثأر من الخلافة الفاطمية، التي شعر تجاهها بروح العداء والكراهية، لاسيما وهو يري ضعف المستنصر السياسي وما تتعرض له البلاد من أزمات اقتصادية(٥).

وتذكر الروايات التاريخية (٦) أن ناصر الدولة راسل الخليفة العباسي "القائم بأمر الله" يطلب منه الأموال والخلع كي يقيم الخطبة له علي منابر مصر، فأرسل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٣٩٩.
(٢) ابن الصيرفي: الإشارة إلي من نال الوزارة ص٤٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٣٩٩.
(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٣.
(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٢، ٣٠٣.
(٦) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص١٩. المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٢. العوفي: العلاقات السياسية ص١٣٨.

إليه الخليفة العباسي نقيب النقباء"طراد بن علي الزينبي" رسولا من قبله، حاملا معه الخلع والهدايا، ولقب بالأمير الأجل حسام الدولة العباسية، وزعيم جيوشها الشامية تاج الملوك ناصر الدين، شرف الأمة ذو الحسبين، خالصة أمير المؤمنين(١).

ومن الغريب أن العباسيين لم يقدموا علي أي خطوة لتقديم العون والمساعدة لناصر الدولة، رغم إقدامه علي مغازلتهم بقطع الخطبة الفاطمية من علي منابر مصر لصالح الخليفة العباسي، بل وفرض سيطرته التامة علي القاهرة تقريبا، وأصبح الآمر الناهي فيها حتي علي الخليفة المستنصر نفسه(٢).

ولكن يبدو أن سمة التردد والهيبة ظلت ملازمة لحكام تلك الفترة، فنجد أن الفاطميين في مصر ظلوا مترددين من قبل في تقديم الدعم للبساسيري، حينما قبض علي الخليفة القائم بأمر الله العباسي، وأعلن الخطبة الفاطمية علي منابر بغداد مدة عام، وكان تأخرهم في تقديم الدعم له سببا في إنقاذ العباسيين من السقوط المحتمل.

ثم ما لبث "ناصر الدولة"أن ولي وجهه شطر القاهرة علي رأس جيش كبير، فدخلها واستبد بالأمر فيها، ثم أمر بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي وإقامتها للخليفة العباسي، بل وبعث للخليفة القائم بأمر الله العباسي يطلب منه إرسال الخلع، وأظهر ميله لأهل السنة.

وكانت القومية الفارسية في العصر العباسي قد تحولت إلي البويهيين الشيعة علي عكس قواد الأتراك السنة(٣).

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ج٢ ص٢٠. العوفي: العلاقات السياسية ص ١٣٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص٤٠٠.

(٣) كان البويهيون يعتنقون المذهب الزيدي، نسبة إلي زيد بن علي بن الحسين، الذي قتل أيام "هشام بن عبد الملك" الأموي . وعلي الرغم من عدم اعتراف الزيديون بخلافة العباسيين، إلا أنهم كانوا يقبلون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، فقالوا بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، كما قالوا إن الإمامة غير واجبة شرعا، وأنها تقليد يمكن الاستغناء عنه، وأن الفقهاء يكونون عوضا عنها، وأكبر دليل علي ذلك أنهم لم يكن لهم إمام حاضر، ولم يكن لهم فقه يمكن الرجوع إليه . حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٤٩٥ دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م . نعمة علي مرسي : دولة آل زيار في طبرستان وجرجان وما جاورهما، ص١٧، دارا لهداية للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٥م.

اتصاله بالسلاجقة:

كانت الأحوال في مصر قد بلغت درجة من الاضطراب والفوضي بحيث اختل معها نظام الحكم، وصارت المنازعات المتتابعة بين الخليفة، و"ابن حمدان" من أسباب سوء الحال، الأمر الذي شجع الأخير أن يستفيد من تلك الأوضاع الداخلية لحسابه.

وكان "ناصر الدولة بن حمدان" يضمر السوء للفاطميين الشيعة، فانتهج سياسة هدفها استنزاف موارد الدولة من أجل إزالة الخلافة الفاطمية، أو ما يمكن أن يطلق عليه "التخريب الاقتصادي" فأخذ يعمل من أجل استنزاف خزائن الدولة الفاطمية.

ولم تقف جرأة "ناصر الدولة بن حمدان" عند هذا الحد، بل نراه يبعث إلي السلطان السلجوقي "ألب أرسلان"[١] سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) رسولا من قبله هو الفقيه "أبو جعفر محمد بن أحمد النجاري" يطلب منه إرسال العساكر ليستطيع إقامة الدعوة العباسية في ديار مصر[٢]، ويزين له القدوم إلي القاهرة لإسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية، وإقامة الدعوة للعباسيين السنة، لتصبح مصر تحت السيادة السلجوقية ، الأمر الذي لقي ترحيبا من السلطان السلجوقي[٣].

هذا في الوقت الذي كان فيه السلاجقة يشعرون بالخطر الذي يهدد دولتهم من جانب الفاطميين الشيعة، بل إنهم كانوا يعتقدون أن البيزنطيين أقل خطرا عليهم من خلفاء مصر الفاطميين الذين يعيثون في المنطقة فسادا بمبادئهم التي تهدف القضاء علي الخلافة العباسية السنية، والسلطنة السلجوقية معا[٤].

---

(١) ألب أرسلان: هو محمد بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، وكنيته " أبو شجاع " وهو اسم تركي معناه " أسد شجاع " فألب شجاع، وأرسلان أسد، وقد استعملت تلك الكلمة عند الشعوب التركية القديمة التي كانت دائما في قتال مستمر. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص٦٩، ٧١. ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص٤٨٥ .

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج٢ ص١٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص٤٠٠ . العوفي: العلاقات السياسية ص١٣٨.

(٤) اللافت للنظر أنه علي الرغم من أن البويهيين (السلطة السابقة) كانوا أكثر من شجع مبعوثي الفاطميين الشيعة غير أن هدفهم لم يكن من أجل تمكين الخليفة الفاطمي من تولي الخلافة علي المسلمين أجمعين لأنهم كانوا يريدون خليفة مسلوب القوي ، لتتحقق لهم السيطرة عليه، فضلا عن اختلافهم المذهبي مع الفاطميين ، لذلك لم يعملوا علي خلع الخليفة العباسي ، وإنما عملوا علي السيطرة عليه.

ولذلك اتسمت العلاقات التي سادت بين السلاجقة والفاطميين بطابع العداء، نظرا لاختلاف كل منهما في المذهب الذي يعتنقه، إذ كان الفاطميون يدينون بالمذهب الشيعي تعمل علي نشره بشتي الطرق والأساليب، وبخاصة في مقر الخلافة العباسية السنية في بغداد، ولاسيما بعد أن تراخت قبضتها علي الأقاليم والأطراف . ولم يقف الأمر عند هذا الحد فنجد أن خلفاء مصر الفاطميين كانوا من أكثر الذين عملوا علي خلع الخليفة العباسي السني في بغداد، فكانوا يبعثون بمبعوثيهم إلي أمراء الدويلات المنشقة ليدخلوهم في المذهب الشيعي، ونجحوا إلي حد ما مع بعض هؤلاء الأمراء[١]، كما استجاب لهم بعض الأهالي ، وانتشر دعاة الشيعة وتفرّقوا في كل مكان بحجة الدفاع عن آل البيت وحقهم في الخلافة ، وترتب علي ذلك أن اضطرب الناس ، وثار بعضهم علي بعض وانتشرت الفتن بينهم[٢].

وبعد أن استقرت الأمور في الدولة السلجوقية للسلطان "ألب أرسلان" أثار اهتمامه انتشار النفوذ الفاطمي في مصر والشام ، ومن ثم أخذ علي عاتقه مهمة القضاء علي الوجود الفاطمي وتقويض دعائم دولتهم. ويذكر البعض[٣] أن السلطان "ألب أرسلان" كان يأمل في بسط سيطرته علي كافة الأراضي التي كانت مجال الحضارة القديمة في مصر والشام، بعد أن بهرته هذه الحضارة، لاسيما وأنه كان مولعا بسماع تاريخ الأقدمين، ومن ثم عمل علي خضوع هذه البلاد للسلطة السلجوقية، وقد صادفه كثير من النجاح في تحقيق سياسته، وتنفيذ غاياته، إذ أقيمت الخطبة له علي منابر الحجاز(مكة والمدينة) وآتته الفرصة عندما جاءته الدعوة من ثوار مصر للمسير إليها لتصبح ضمن أملاكه[٤].

والواقع أن السلطان ألب أرسلان لم يكن هو أول من فكر من السلاجقة في القضاء علي الخلافة الفاطمية في مصر والشام، فقد سبقه إلي ذلك عمه السلطان

---

(١) ابن الأثير:الكامل في التاريخ ح ٨ ص٨٣ .عبد المجيد أبو الفتوح بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص١٢٨. محمد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران، ص٩٠ .
(٢) مصطفي غالب: الدعوة الإسماعيلية ص٢٥٠ .
(٣) محمد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران ص٩٠ .
(٤) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٠٠.

"طغرلبك"[١] الذي أعلن سياسته تجاه الفاطميين، وذلك عندما استدعاه الخليفة العباسي "القائم بأمر الله" للقدوم إلي بغداد لتخليصه من سيطرة البويهيين، فأعلن وهو في طريقه إلي بغداد سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) أنه عازم علي المسير إلي الشام ثم مصر لإزالة المستنصر العلوي صاحبها، لاسيما بعد أن ثبت له تورطهم في فتنة أخيه "إبراهيم ينال" ومشاركتهم في فتنة "البساسيري" فعول علي الانتقام منهم بقوله: "وأذهب إلي الشام ومصر وأفعل في حق صاحب مصر ما أجازي به فعله"[٢]، ولكن مشاغل السلطان "طغر لبك" في العراق والمشرق منعته من تنفيذ مشروعه، وأعاقت تقدمه صوب مصر[٣].

وصادف ذلك أن عمّ القحط والجدب أرجاء الديار المصرية نتيجة توقف فيضان النيل، وساءت الأحوال الاقتصادية، وتفاقم الأمر حتي أكل الناس الجيف وفر أكثرهم إلي البلاد الشامية والعراقية هربا من الجوع [٤]. ويصف المقريزي(٥) هذه الحالة، وما آل إليه حال الخليفة المستنصر وعائلته بقوله: "وآل أمر الخليفة المستنصر إلي أن صار يجلس علي "تخ" أو حصير، وتعطلت دواوينه، وذهب وقاره، وخرج نساء قصوره ناشرات شعورهن يصحن :الجوع الجوع، وهن يردن المسير إلي العراق، فتساقطن عند المصلي، بظاهر باب النصر بالقاهرة، ومتن من الجوع"[٦].

ومما زاد من تفاقم الأزمة أن معظم الأقاليم خرجت عن السيطرة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر لاسيما الحجاز(٧)، إذ أعلن "محمد بن جعفر بن أبي هاشم" أمير مكة سنة (٤٦٠هـ/١٠٦٧م) الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله، ثم ما لبث أن أرسل إلي السلطان "ألب أرسلان" سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) ليساومه في

---

(١) طُغرلبك: هوأبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، الملقب ركن الدين طغرلبك أول ملوك السلاجقة . لمزيد من التفاصيل حول حياة طغرلبك راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ح ٥ ص٦٣ -٦٨

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢٩٨.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص٢٠٨ .

(٤) ابن خواندمير: روضة الصفا ص٢٢٧ .

(٥) اتعاظ الحنفا: ج٢ ص٢٩٨.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ج٨ ص٢٥٧ . ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ص٧٤ . ابن ميسر: اخبار مصر ج٢ ص٢٠ .

(٧) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ص٧٤ .

إعلان الخطبة للقائم العباسي وقطعها للمستنصر الفاطمي(١)، الأمر الذي لقي ترحيبا من السلطان السلجوقي الذي أرسل إليه مبلغ ثلاثين ألف دينار وخلعة، كما أجري له كل سنة عشرة الآف دينار، ووعد أمير المدينة مثل ذلك إن فعل(٢).

وكان من البديهي أن تلحق المدينة بركاب مكة، لكنها يبدو أنها قابلت هذا الموقف بكثير من الصمت إزاء ما يجري في مصر، إذ لم تمدنا المصادر عن موقف معلن لأمير المدينة تجاه تلك الأحداث. ولا شك أن الحالة الاقتصادية التي كانت تمر بها مصر آنذاك كانت في مقدمة الأسباب التي ساعدت السلطان السلجوقي علي تنفيذ مخططاته للمسير إلي مصر لتحقيق حلمه المنشود بالقضاء علي الخلافة الفاطمية في عقر دارها، مستغلا الظروف السيئة التي تمر بها (الشدة العظمي)، وقيام الفتن بين العبيد والأتراك، ثم الدعوة التي جاءته من قائد الأتراك "ابن حمدان"، ولكنه رأي أن يدعم سلطانه أولاً علي "التركمان" (وهم عماد الجيش السلجوقي) الذين كانوا مهتمين بكثرة مغانم الغزوات(٣).

ويذكر البعض(٤)أن السلطان "ألب أرسلان" شدد غاراته علي آسيا الصغري قبل اتخاذ أي خطوة ضد مصر، لأنه كان متخوفا من حدوث تحالف بيزنطي فاطمي ضده فيقع بين شقي الرحي، فأراد أن يحمي ظهره من البيزنطيين أولاً، قبل المضي إلي تحقيق هدفه بمهاجمة الفاطميين في مصر.

وبعد أن أمن السلطان "ألب أرسلان" جانب البيزنطيين رأي تلبية ثوار مصر لتوجيه ضربة موجعة للفاطميين في الشام ومصر(٥). فوضع خطة للاستيلاء علي الشام كخطوة أولي في طريق التقدم نحو مصر لتحقيق حلمه المنشود(٦).

---

(١) يري البعض أن "محمد بن جعفر" أراد أن يستفيد من وجود الخلافتين (العباسية والفاطمية) المتنافستين لصالحه، بالاستقلال عن أي نفوذ وجمع المال الوفير، وقد وصفه أبو المحاسن بـ "أنه كان خبيثا متلونا تارة مع العباسيين، وتارة مع الفاطميين" . أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥ ص١٤٠ .

(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج ٢ ص٣١٢ .عبد المنعم ماجد: الخليفة المستنصر ص١٢٢.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص١٠٥، ترجمة: د/ السيد الباز العريني، دار الثقافة ط٢ بيروت ١٩٨١م.

(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص١٠٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٠٠.

(٦) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص١٩،١٨.

غير أن الأخبار ترامت إلي السلطان "ألب أرسلان" باستيلاء الإمبراطور البيزنطي "أرمانوس ديوجين" علي مدينة "منبج"(١) سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) واستباحته إياها، الأمر الذي دفع السلطان السلجوقي لإعداد حملة كبيرة لتأديب ملك الروم ، واخترقت قواته بلاد الجزيرة قاصدة الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغري لتأديب الإمبراطور البيزنطي(٢)، ولكن لم يلبث أن علم بعودة الأخير إلي بلاده بعدما تعرضت قواته لمجاعة شديدة نتيجة نقص المؤن والمياه، وخوفا من الهجوم السلجوقي المتوقع، فتركها عائدا إلي بلاده بعد أن ترك حامية صغيرة بها(٣)، فغير ألب أرسلان وجهته نحو "ديار بكر"(٤) في شمال الجزيرة الفراتية وكانت تتبع الإمارة المروانية (٥).

فدخل في طاعته صاحب "ديار بكر" و"آمد"(٦) و"ميافارقين"(٧)، ثم واصل سيره حتي ناحية "الرها" (٨) وكانت تحت حكم البزنطيين(٩)، فضرب حولها الحصار بغية الاستيلاء عليها(١٠).

وبعد أن أمسك "ألب أرسلان" بزمام الأمور بيده في ديار بكر، والجزيرة الفراتية، و ثبت سلطانه فيهما، رأي أن "حلب" تعترض طريقه، وتقف دون تحقيق آماله في اكتساح الفاطميين في مصر، وخاصة بعد أن نمي إلي علمه أن صاحبها"محمود بن نصر" أصبح مواليا للفاطميين في مصر، ويؤذن علي منابر

---

(١) منبج: مدينة ببلاد الشام بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وإلي حلب عشرة فراسخ. ياقوت: معجم البلدان ج٥ ص٢٠٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج٢ ص٢٢.

(٣) البنداري: تاريخ آل سلجوق ص٣٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص٢٥٦.

(٤) ديار بكر: بلاد واسعة تقع غرب دجلة، منها حصن "كيفا" وآمد، وميافارقين. ياقوت معجم البلدان ج٢ ص٤٩٤.

(٥) الإمارة المروانية: تذكر الروايات أن أحد الأكراد ويدعي "باذ الكردي" كان من قطاع الطريق، فلما قوي أمره استطاع أن يفرض سيطرته علي ديار بكر، وآمد، وميا فارقين، وبلغ به الطمع أن حاول الاستيلاء علي الموصل من الحمدانيين، ولكنه قتل في المعركة، فتولي الإمارة بعده ابنه، ليؤسس الإمارة المروانية. الفارقي: تاريخ الفارقي ص٤٩،٥٠. تحقيق: د/ بدوي عبداللطيف، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤م.

(٦) آمد: من أعظم مدن ديار بكر. ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٥٦.

(٧) ميافارقين: من أشهر مدن ديار بكر. ياقوت: معجم البلدان ج٥ ص٢٣٥.

(٨) الرها: من مدن الجزيرة، تقع بين الموصل والشام. ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص١٠٦.

(٩)ابن العديم: زبدة الحلب ج٢ ص٢٠.

(١٠) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٢٢.

بلاده بالآذان الشيعي "حي علي خير العمل" فأراد أن يضرب الوجود الفاطمي في حلب، لاسيما وأن تلك المدينة تشكل المفتاح الرئيس والاستراتيجي لأراضي الدولة الفاطمية في الشام، فأرسل السلطان السلجوقي إلي صاحب "حلب" "محمود بن نصر المرداسي"(١) يستدعيه إليه، وبخاصة بعد أن بلغته الأخبار بأن صاحبها يخطب علي منابر بلاده بالآذان الشيعي، فامتنع الأخير عن القدوم إلي السلطان خوفا منه، الأمر الذي أغضب ألب أرسلان فترك حصار الرها، وتحرك نحوه بقواته سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) عابرا نهر الفرات، فكان أول سلطان تركي يعبر هذا النهر(٢).

ظهرت براعة "ألب أرسلان" السياسية والحربية عندما حرّض "بني كلاب" الموالين له، والحاقدين علي "محمود بن نصر"، حتي إنه كلّف أحدهم بمهاجمة الأملاك المرداسية(٣).

وعندما أدرك "محمود بن نصر" المأزق الذي يواجهه، وأنه لا قبل له بمواجهة السلطان السلجوقي، وانعدمت الرغبة عنده في مساندة الفاطميين، تراجع عن موقفه وامتثل لأوامر ألب أرسلان، وحضر بين يديه وسلمه مفاتيح المدينة، علي أن يكون متصرفا تحت أمره، ونهيه، واختياره، فخلع عليه السلطان، وكتب له توقيعا بحكم حلب نيابة عن السلاجقة.

وتم الأمر كما أراد "ألب أرسلان" وأطاح بالنفوذ الفاطمي من حلب، وأصبح سيدها دون حرب، أو قتال(٤). وما لبثت الأخبار أن جاءت إلي السلطان السلجوقي بعزم إمبراطور الروم "أرمانوس ديوجين" (٤٦١-٤٦٤هـ/ ١٠٦٨-١٠٧١م) علي مهاجمة الأملاك السلجوقية في خراسان مستغلا غياب السلطان وتوجهه ناحية مصر، ولوضع حد للغارات السلجوقية علي أطراف بلاده، فرأي "ألب أرسلان" أنه من

---

(١) محمود بن نصر المرداسي: أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس، كان ذا شهامة ومعرفة بأسباب الحرب، استولي علي حلب من الحمدانيين. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص٤٨٧، ٤٨٨.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج٢ ص٢٧٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٠٠١.

(٤) البنداري: آل سلجوق ص٣٩ .ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٢٩٩.

الحكمة تأجيل مشروعه ضد مصر، والتوجه سريعا إلي خراسان لحماية ممتلكاته من هجمات البزنطيين، فترك حلب(١) وكر راجعا لملاقاة إمبراطور الروم(٢).

الموقف في مصر ونهاية ناصر الدولة:

لاقي المستنصر صعابا كثيرة في الداخل من انقسام البلاد بين طوائف الجند، إذ صارت الصعيد تحت سيطرة العبيد، ومصر والقاهرة في يد الأتراك، والريف والإسكندرية، ودمياط تحت سلطان ابن حمدان، ومن انضم إليه من العرب والبربر(٣). وزاد الطين بلة اشتداد وطأة الشدة العظمي في مصر، وانتشار المجاعة التي امتدت سبع سنين، وانتشرت الفوضي والاضطرابات، وخربت أعمال الدولة، وقل دخلها، وتغلب الأتراك علي معظمها، حتي تجرءوا علي الوزراء، واستخفوا بهم، وصار النيل يطلع وينزل فلا تجد الأرض من يزرعها لانعدام الأمن، وانقسام البلاد بين طوائف الجند(٤)، وتفاقم الأمر حتي فرّ أكثر الناس إلي خارج البلاد هربا من الجوع والفتن، وأصبحت البلاد في حالة يرثي لها(٥). ولما بلغ المستنصر تلك الخطوة الجريئة التي أقدم عليها ناصر الدولة استشاط غضبا، وجهز جيشا كبيرا لقتاله في البحيرة سنة (٤٦٤هـ/١٠٧١م)، إلا أنه مني بهزيمة ثقيلة، وغنم ناصر الدولة ذخائر الجند، وأمر بقطع الإمدادات عن القاهرة التي كانت تعاني مجاعة شديدة نتيجة تعرض البلاد لنقص فيضان النيل، فكانت ضربة قاصمة للخلافة الفاطمية المنهارة(٦).

---

(١) يذكر المؤرخون أن السلطان ألب أرسلان لم يهمل مشروعه العسكري ضد الدولة الفاطمية في الشام ومصر، فاتفق مع "محمود بن نصر" لينوب عنه في السير إلي دمشق وانتزاعها من أيدي الفاطميين، وترك معه أحد خواصه ويدعي "أيتكين السليماني" للقيام بهذه المهمة، ثم قفل عائدا إلي بلاده لمواجهة خطر البيزنطيين. ابن ميسر: اخبار مصر ج٢ ص٢٠ . ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص٢٥٧. ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ص٧٤ .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص١١٢. العوفي: العلاقات السياسية ص١٨٨.

(٣) محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء ص١٧٦.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٢ ص٢٩٨، ٢٩٩.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص٢٥٧..ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ص٧٤ . ابن ميسر: اخبار مصر ج٢ ص٢٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٠٠.

ومن المحقق أن "ابن حمدان" لو كان تلقي دعما قويا من العباسيين لكان من الممكن أن يغيّر الخريطة السياسية للمنطقة آنذاك، وربما كان فيها النهاية للدولة الفاطمية في مصر.

وكان طبيعيا أن ينتج عن هذا الاضطراب وعدم التوازن أن يلجا المستنصر مرة أخري إلي القوة، والهجوم المسلح، والانقضاض علي الخصم، فجهز عدة جيوش لمداهمة معقل "ابن حمدان"، قدّرهم البعض بثلاثة جيوش متتابعة(١).

ولما وصلت جيوش المستنصر إلي البحيرة اشتبكوا مع ناصر الدولة، إلا أنه هزمهم جميعا، مما قوي مركزه، وأضعف بالتالي من موقف الفاطميين، وكثر السلب والنهب، وفر كثير من الناس إلي خارج القاهرة(٢). ومن هنا بدأ "ناصر الدولة" في التخطيط للقضاء علي الخلافة الفاطمية فقطع الخطبة للمستنصر من جميع نواحي الوجه البحري سنة (٤٦٤هـ/١٠٧١م) وواصل سيره حتي وصل القاهرة، وباشر حكمها بنفسه، وبعث إلي الخليفة المستنصر يطلب منه الأموال(٣).

ويذكر المؤرخون(٤) أن الرسول عندما ذهب للمستنصر وجده جالسا علي حصير، وفي رجله قبقاب من خشب أبيض وذكّره بطلب ناصر الدولة، فقال المستنصر:"أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت علي هذا الحال" فبكي الرسول من شدة تأثره، وعاد إلي ناصر الدولة، وأخبره بما رآه، فأطلق للمستنصر كل شهر، وفي رواية كل يوم مائة دينار، وحكم مصر بنفسه دون منازع.

ويذكر أن ناصر الدولة قبض علي أم المستنصر، وبالغ في إهانتها، وصادر أموالها، وزاد من تسلطه، وأظهر التسنن، ونادي باسم الخليفة العباسي علي منابر مصر(٥).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٠٠. المقريزي: اتعاظ الحنفا: ج٢ ص٣٠٢.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الفوضي التي عمت القاهرة والأقاليم انظر المقريزي: اتعاظ الحنفا: ج٢ ص٢٨٠. ٢٩٨.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص٢٥٧. ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ص٧٤ . العوفي: العلاقات السياسية ص١٩٢.

(٤)ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٠٠.المقريزي: اتعاظ الحنفا: ج٢ ص٣٠٦.

(٥) ابن ميسر: أخبارمصر ج٢ ص٢١. ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٠٠.العوفي: العلاقات السياسية ص١٩٣.

ولما كان دوام الحال من المحال فقد انقلب عليه أصحابه من الأتراك، ودبروا مؤامرة لقتله، حتي نجحوا في التخلص منه سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يتتبعون أسرته حتي أبادوهم عن آخرهم. وتذكر المصادر التاريخية(١) أن ناصر الدولة كان يولي الرجل الإمارة، فإذا وصل إليها طلب منه الرجوع، ولم يمكنه من ولايته. وبهذه السياسية الخرقاء قلّب عليه أتباعه ومحبيه، فترصده اثنان من كبار القادة هما: "الدكر" و" بلدكوش" فاجتمعا بالأتراك وحرضوهم عليه، وإنه متي تمكن من الأمر فإنه لن يبقي منهم أحد، فاتفقوا علي قتله والتخلص منه، فركبوا إلي داره سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) وتمكنوا من قتله، وقتلوا معه أخويه "فخر العرب" و"تاج المعالي" وجماعة من أنصاره، ونهبوا داره، وانتهي بذلك أمر ناصر الدولة بن حمدان(٢).

ومن المؤكد أن دولة الفاطميين كانت تمر آنذاك بمرحلة انعطاف خطير في تاريخها، ولم يكن من اليسير علي المستنصر التصدي لها، أو التحكم في مسارها، مهما اجتمع لديه من المقدرة والكفاءة، وكان واضحا أن محاولاته المتكررة لاستعادة هيبة الخلافة، هو العبء الأكثر خطورة، وأدي في النهاية إلي تحول الصراع السياسي إلي المجابهة العسكرية.

وكانت ثمة منعطفات ثلاثة ساهمت في فشل ثورة "ابن حمدان"، وبالتالي ضياع حلم العباسيين في القضاء علي الفاطميين.

أولها: أن ثورة "ناصر الدولة" كانت تحمل طياتها بوادر الفشل منذ اللحظة الأولي التي وجدت فيها، بسبب عدم تحمس صاحبها للمذهب السني بقدر كونه متحمسا لحب الزعامة والنفوذ، والرغبة في الانتقام من منافسيه، وأيضا بسبب تذبذب ميول العناصر والزعامات المشاركة معه، والمؤيدة له بحكم مصالحها السياسية والاقتصادية، فتارة مع الفاطميين، وتارة معه.

ثانيها: لسنا في حاجة إلي التأكيد علي موقف العباسيين السلبي حيث أدي الموقف المتردد من الخلافة العباسية نفسها، وعدم تحمسها في تقديم العون اللازم له، والذي نتج بشكل مباشر من عدم ثقتهم في إخلاصه، ولو أن ناصر الدولة تلقي

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٠٠١. المقريزي: اتعاظ الحنفا: ج٢ ص٣٠٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٠١.

أي دعم من العباسيين، لتغير الحال، وربما سقطت الدولة الفاطمية في تلك الفترة، وبالتالي أنقذته من المصير الذي صار إليه.

ثالثها: إن منطق القوة الذي رافق ثورة ناصر الدولة علي الدولة الفاطمية رغم الذرائع الذي حاول أن يستمد منها الغطاء الشرعي لثورته، كان سببا في ظهور معارضة قوية داخل التيارات والعصبيات المؤيدة له من الأتراك، الأمر الذي انعكس بشكل مباشر علي تجاذب القوي فيما بينها، مما استنفد قوته وأفقده مسوغ الاستمرار. والحق أن "ناصر الدولة بن حمدان" لم يكن إلا قائدا مغامرا غضب عليه سيده، فتملكه روح العداء والكراهية تجاه، فجمع حوله كل مغامر وصولي، واضطرته الظروف أن يوجه نظره علي المعسكر المنافس للفاطميين بغيه الوصول إلي هدف سياسي، ولم يكن لدي هذه الخلافة المتداعية التي استنجد بها ما تقدمه سوي جمع المال، وما تبذله من وعود، سوي إرسال الخلع، ومنح الألقاب.

ومجمل القول أن ثورة "ابن حمدان" كانت ثورة بتراء ليست لها خطة مرسومة، أو منهج معلوم، أو ظهير شعبي يعضدها، فكانت تعوزها الدعوة القوية الصادقة التي تجذب إليها الجماهير في إخلاص وتضحية، ولذلك ما كادت تستفحل حتي وهنت وقضي عليها قضاءاً مبرماً.

ومهما يكن من أمر فإن خروج ابن حمدان وجماعته من الأتراك لم يكن سوي استجابة لمعطيات المرحلة التي كانت قد اختمرت عنده، لكنها لم يقدّر لها النجاح وباءت بالفشل، والتي انتهت بمقتله .

وبموته أسدل الستار علي فترة تاريخية مهمة من حياة الدولة الفاطمية كادت تطيح بها من علي مسرح الأحداث السياسية، لاسيما بعد أن أكلتها الانقسامات السياسية والدينية، ولكن ما لبث أن عادت إليها الروح من جديد، لكنة عود أشبه إلي حد كبير بصحوة الموت.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

* ابن الأثير: علي بن أبي الكرم. (ت ٦٣٠هـ)

١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.

* البنداري: الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (٥٩٧ هـ)

٢ . تاريخ دولة آل سلجوق (اختصار الفتح بن علي البندري) دار الآفاق الجديدة ط ٣ بيروت ١٩٨٠م.

* الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)

٣ . رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٦٥م.

*ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي(٥٩٧هـ)

٤ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هـ.

* الحسيني: صدر الدين علي بن ناصر الحسيني (٦٢٢ هـ)

٥- زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق د/ محمد نور الدين، دار اقرأ، ط ١ بيروت ١٩٨٥م.

* ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨هـ).

٦- العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

* ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ).

٧ وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

* خواندمير: محمد بن خاوندشاه المعروف بخواندمير (٩٠٣ هـ).

٨ . روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمه عن الفارسية: د/ أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١، القاهرة ١٩٨٨م.

* الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد(٧٤٨ هـ)

٩- العبر في خبر من غبر، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية بيروت (د .ت)

* الراوندي (من علماء القرن السادس الهجري) محمد بن علي بن سليمان

١٠. راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة د / إبراهيم أمين الشورابي وزميلاه، دار القلم . القاهرة ١٩٦٠م.

* السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(٩١١ هـ)

١١ . تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤م.

*شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن عبد الرحمن (٧٦٤ هـ).

١٢ . فوات الوفيات، تحقيق : د / إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٧٣م.

* ابن الصيرفي: أبو القاسم علي بن منجب (٥٤٢هـ)

١٣ . الإشارة إلي من نال الوزارة ص ٤٥. تصحيح: عبد الله مخلص، طبع المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩٢٤م.

* ابن العبري: غريغروريوس أبو الفرج بن هارون (٩٨٥هـ)

١٤ – تاريخ مختصر الدول، دار الآفاق العربية ط١ القاهرة، ٢٠٠١م.

* ابن العديم: عمر بن أحمد بن أبي جرادة (٦٦٠ هـ).

١٥ . زبدة الحلب من تاريخ حلب حققه وقدم له د / سهيل زكار دار الكتاب العربي ط ١ دمشق ١٩٩٧م.

* ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي(١٠٨٩هـ).

١٦ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دارالفكر بيروت (د ت)

* ابن القلانسي: أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي (٥٥٥ هـ).

١٧ . ذيل تاريخ دمشق، مطبعة المتنبي (د ت)

* القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١ هـ).

١٨ – قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الحديثة، ط١ القاهرة ١٩٦٣ م .

* ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر(٧٧٤هـ) .

١٩ – البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

* أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي(٨٧٤هـ).

٢٠– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٣٥م.

* النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٣ هـ).

٢١– نهاية الأرب في فنون الأدب دارا لكتب المصرية القاهرة ٢٠٠٧

* المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥ هـ).

٢٢ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،المجلس الأعلي للشئون الإسلامية القاهرة ١٩٦٩م..

٢٣ . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت (د.ت).

* ابن ميسر: محمد بن علي بن يوسف (٦٧٧هـ)

٢٤ ـ أخبار مصر، تصحيح: هنري ماسيه، طبع المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩١٩م.

* ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي(٦٢٦هـ) .

٢٥ . معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

ثانياً : المراجع :

* أحمد السعيد سليمان (دكتور)

١ ــ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ م

* أمينة بيطار (دكتور)

٢ ــ موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتي أواخر القرن الخامس الهجري، دار دمشق للطباعة ط ١ دمشق ١٩٨٠ م ٠

* تامارا رايس

٣ ــ السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفي الخوري، مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٨م

* حامد عنبم أبوسعيد (دكتور)

٤ ــ الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧١م.

* حسن إبراهيم حسن (دكتور)

٥ . تاريخ الإسلام السياسي،دار الجيل، ط ٨ بيروت ١٩٩٦م.

* حسين مؤنس (دكتور)

٦ . نور الدين بن زنكي (فجر الحروب الصليبية) الزهراء للإعلام العربي، ط٢ الرياض ١٩٨٤م.

* خاشع المعاضيدي (دكتور)

٧ ــ الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، دار الحرية للطباعة، ط ١ بغداد ١٩٧٥

* خليل السامرائي (دكتور) وزميلاه : د/طارق فتحي سلطان د / جزيل عبد الجبار الجومرد

٨ ــ تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي(١٣٢ . ٦٥٦ هـ/ ٧٤٩ . ١٢٥٨ م) طبع جامعة الموصل ١٩٨٨م.

* ستيفن رنسيمان

٩ــ تاريخ الحروب الصليبية ترجمة د/ السيد الباز العريني دار الثقافة، ط ١ ١٩٦٧م

* سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

١٠ ــ الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣ م ٠

١١ــ أوربا في العصور الوسطي، مكتبة الإنجلو المصرية، ط ٨ القاهرة ١٩٩٧ م

* عباس إقبال ٠

١٢ ــ تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتي نهاية الدولة القاجاوية، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م ٠

* عبد النعيم محمد حسنيين (دكتور)

١٣ ـــ السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٥

* عبد المجيد أبو الفتوح بدوي (دكتور)

١٤ـــ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتي سقوط بغداد، دار الوفاء للطباعة و النشر، المنصورة، ط ٢، ١٩٨٨ م

* قاسم عبده قاسم (دكتور)

١٥ـــ ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلي للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٠م.

* علي محمد الصلابي (دكتور)

١٦ ـــ دولة السلاجقة ويروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة ٢٠٠٦م.

* محمد جمال الدين سرور (دكتور)

١٧ ـــ مصرفي عصر الدولة الفاطمية ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٠م.

* محمد حمدي المناوي (دكتور)

١٨ـــ الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م.

* محمد العوفي (دكتور)

١٩ ـــ العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي (٤٤٧ . ٥٦٧ هـ / ١٠٥٥ . ١١٧١م) ط ١، الرياض ١٩٨٢م.

ثالثا ـ الرسائل الجامعية :

*صلاح الدين علي عاشور

١ـــ الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥ـ٤٦٥هـ/١٠٦٣ ـ١٠٧٢م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية بالقاهرة١٩٩٣م.

رابعاً ـ الدوريات:

مني عبد الغني حسن (دكتور)

١ـ إمارة بني عقيل في الموصل وعلاقتها بالقوي الإسلامية المعاصرة لها (٣٨٠ـ٤٨٩هـ/ ٩٩٠ـ١٠٩٦) بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، العدد الثالث والعشرون، الجزء الثالث، القاهرة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.